من وراء جدر

رواية...

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف
عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

جميع حقوق الطّبع والنّشر محفوظة للمؤلف.
لا يسمح بتصوير أو نسخ جزء أو كل هذا الكتاب دون الموافقة الخطّية من المؤلف.
وكل مَن يُخالف ذلك يعرّض نفسه للمساءلة القانونية

الطبعة الأولى 2021

دار يـافـا العلمية للنشر والتوزيع
الأردن – عمان – تلفاكس 4778770 6 00962
ص. ب 520651 عمان 11152 الأردن
E-mail: dar- yafa @yahoo. com

إهداء

إلى من تلاشت قلوبهم في عتمة الحياة فظنوا أنها خالية من السعادة والأمل

إلى صديقة وفيّه تحمل قلبا مختلفا"اسماء" وأخرى ساعدتني في نقش هذه الحروف "رهف"

إلى حامل القانون الذي أضاف بريق العدل لعالم اسود

إلى صديق الطفولة ومعزوفة الذكريات

إلى من اختارت روحه أن تسكن مكانًا خاليا من البشر

إلى من رحلوا وتركوا فينا زوابع من الصور والمشاعر المكتظة والحنين.

إلى هذا العالم المليء بالصخب

إلى أبي الذي لطالما كنت مصدر غضبه وازعاجه

اعتذر أنا أحبك و بشدة

قال تعالى:

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾

سورة الحشر ،14

كم وددت لو أنه عاد ، فهناك الكثير من الكلام له والمئات من رسائل الاعتذار لأمنحه إياها, كم تمنيت عودته لأتأسف وبشدة على ضياع كل دقيقة كان يريد مني أن أبقى فيها معه.

تمنيت أن يرى دموعي وهي تنساب كلما لاح طيفه في الذاكرة ،ليعلمَ مقدار حبي ، كم أشتهي أن أقول أبي مجددا.....

حقا! كنت مغّفلا ، والان أتمنى أن يعود لتوبيخي ، ليبتسم فأرى ابتسامته واتمعّن فيها , فأرحل إلى نطاق السعادة , كم أتمنى لو عاد الزمان أدراجه للوراء ,لألقي بجسدي المتهالك في أحضانه وأجهّش البكاء ، أنا حقا أفتقده ،لم أعتقد أن هذا اليوم سياتي..

كنت دومًا أقول أني سأعتذر غدًا يا أبي ، أين الغد؟ ألم تطلع شمسه إلى الان !؟ أين أبي ؟

يوسف...

(1)

كان يوما عاديًا ،أستيقظ فيه مُبكرًا كما اعتدت أن أفعل, هناك نور ما! من الذي أشعله ؟

نهضت من الفراش وأنا أتثاءب فتحت باب الغرفة لأنزل السلالم ، ربما أمي أعدت الإفطار وربما تركت لي مهمة تحصيل ما تشتهيه معدتي من الثلاجة ، لأرى والدي ينهض مستعدًا للخروج لمكان ما..

لم أعتد خروجه في مثل هذا الوقت فسارعت لسؤاله بتهكم:

غريب أمرك أتخطط للعمل في هذا الوقت المبكر ! إلى أين تنوي الذهاب ؟ ليردَّ عليَّ بابتسامة:

إنه عمل من نوع خاص ،لقد واعدت شخص برؤيته الان ،لا عليك من هذا ، عدني أن تكون شأًبًا مطيعا اليوم ، أن تعتني بنفسك وأمك ريثما أعود.

لأردَّ بضجر:

أنا لست شأًبًا لا أزال صبيا ,لا تحملني مالا طاقة لي به.

ليتركني ويرحل ... فادخل متأفف وانا أحدث نفسي : كم أكره كلمة " لقد كبُرت " لا يعلم أني لا أزال أرغب بمزيد من اللعب , بقضاء المزيد من الوقت الممتع . لما يريدني أن أُضيّع عمري بمتاعب الحياة ؟ أيريد أن أصبح مثله ؟!

تجاهلت ما تكبّدني من مشاعر وقتئذ ،وخرجت من المنزل قاصدًا الجامعة ،لا جديد ...

يوم كسائر الأيام أحمل حقيبتي بضجر وأخرج برفقة صديق لي يدعى محمد ، قد لاحظ ضجري فسألني مبتسَمًا:

أرأيت أباك صباح هذا اليوم ؟

لتأتيه نبرتي الغاضبة مجيبة له:

نعم وليتني لم أفعل عاد ليقول أني كَبرت والهراء الذي يلقيه على مسمعي يوميا.

لاحظت سكوت محمد وتنهده لأقول : ما بك ؟

محمد : أتعلم ! أتمنى أن يعود أبي , لقد اشتقت لتوبيخه لصوته, لضحكته , لغضبه حتى.

لأساله وانا موقن بأني فتحت عليه بأًبًا من المواجع :
يبدوا أنه كان يحبك ليس كمثل ابي! أيضا لكنك لا تفهم ذلك ،ليس هناك أب يُكّن كُرّها لفلذة كبده إلا ما ندر . والدك يحبك لكن عليك أن تفهم طريقته في التعبير عن ذلك لك.

لم أتحدث خشية الدخول بنقاش لا نهاية له , لا أعلم ما السحر الذي القّاه عليَّ لأظل مشتتا طوال اليوم ، كلماته تعصّف في ذهني ذهاًبًا واياًبًا (إنه يحبك . ليت أبي يعود .لا تعامله هكذا . لا أريد أن أكبر)

حضرت المحاضرة الأولى بجسدي فقط فكري يجول بعيدًا عن حدود القاعة التي أجلس فيها , أو عن كلمات الدكتور الذي ينطق بها . لم أستطع الذهاب إلى المحاضرة التي تليها .

شعرت ببعض الإرهاق، فجلست بجسدي الذي أضناه التعب لأتمالك نفسي ومن ثم أذهب للمنزل ,لكن ما حدث فجاءة لم يمكّنني من النهوض .ألم شديد يعجُّ به رأسي ، تعبت أشعر بأن رأسي يفوق وزني وزنا ،أمسكه بين يدي أضغط عليه لأمنعه من الانفجار ، أسمع أناس ينادون باسمي لكن أنا لا أراهم ، الحروف ثَقُلت في لساني ،لست قادرا على النطق بها ، ثوان عصيبة اشتد فيها الظلام، لم أعد أسمع تلك الاصوات المُنادية ، لقد دخلت في حالة الا وعي...

***

أنه أبي يرتدي معطف أبيض ، يقف أسفل عمود إناره ويبتسم ينظر إليَّ بغرابة ، وما هي إلا ثوان حتى تبعثرت ملامحه ، واصفرَّ وجهه وفجاءة أطفئ الضوء من فوقه .....

**

نهضت فزعًا ، لم أستطع التحرك لشدة الإعياء ، قطرات من العرق تتصبب على جبيني ،مما دفع أبي لينظر لي بقلق ويقول:

أأنت بخير ؟

أخبرته أني كذلك ,وأردفت بتنهد:

ماذا حدث؟ أين أنا؟

رأيته يبتسم ليبعّث في نفسي شيئا من الطمأنينة :
لقد فقدت وعيك بالجامعة ، أخبرنا الطبيب أنك ستكون بخير إذا ما ارتحت قليلا ...يبدوا أنك أجهدت نفسك بالتفكير بأمر ما .

لم أقدم أي رد فعل لما قاله مما دفعه لسؤالي:

بما كنت تفكر ؟
ليجلس بجواري بقلبه الحاني الذي سرعان ما رددت معروفه بنفور كان قد اعتاده ليقول:

تحدث لعلك ترتاح قليلا..

لم أجبه رغم إلحاحّه ليقف يائِسًا :

أذا أردت التحدث سأكون هنا لأستمع إليك ،استرح الآن.
خرج ويا ليته لم يفعل ،كنت بحاجة لوجوده الذي لم أخبره بقيمتة، ما الذي حدث ؟ وكأنما لم يعد هناك أكسجين لأستنشقه ، هل أخذه أبي معه ؟؟

أم أن رئتيّ أصبحت عاجزة عن سحبه ودفعه لجوفها ؟
لماذا أشعر بفجوة تعتري روحي؟

لم يكن لأبي أي تأثير علي من قبل ،بل لم أكن أشعر بوجوده حتى..

آه...

ليضغط على رأسه وكأنّ هناك نارًا تتأجّج ستخرج من أذنيه ،لم يستطع أن ينبس ببنت شفه ،كان رأسه يخوض معارك قد دوّى صوت مدافعها ليحدث رنينًا في نفسه، وكأنما هناك أسد يصارع فكره ، يزأر بقوة ما بين لحظة وأخرى ، قاتِلًا له ،الصمت الذي يخيّم على المكان كان مُطبقًا عليه.

خانقًا بطريقة تفوق المألوف ...

حتى حدث زلزال يزلزل كيان الصمت المهيب ،كان الطبيب قد دخل بابتسامة مختلفة تحمل في ثناياها الكثير ،ابتسمت بتلقائية ،فسألني :

كيف أصبحت؟

-أنا بخير

جلس على الكرسي فأصبح مقابلًا ليّ وقال:

أتمنى ذلك ،وأردف اسمك حمزة صحيح؟

قلت : نعم

الطبيب : أنا الطبيب ليث أعمل هنا ، يبدوا أنك خضعت للكثير من الظروف السيئة ،لا عليك ستكون بخير ، أثق بأنك شاب يافع يستطيع التغلب على كل المعيقات التي تطوّقه. بادلته الابتسامة وشردت عيناي نحو يدي التي تنغرس فيها الإبرة ،أرقُبُ قطرات السائل المغذّي وهي تتسلل لجسدي، اكتفيت بالصمت ،حتى قال :

أباك؟؟

رفعت عيناي وكأن هناك تيار صاعق قد التصق بجسدي ، لم أجبه فهو لم يسأل ، رمقته بنظرة جُلُّ معناها ما شأنك ، فلم يعاود السؤال.

ليث....

عملي كان عاديًا ، يمضي كما المعتاد الدقائق الروتينية تكرر نفسها فحسب ، وقتي يتوزع ما بين مراجعات المرضى ,ومساعدة بعضهم الأخر ، وفي بلد عربي يعتقد فيه الناس أنك مجنون ، لن تستطيع التقدم بالقدر الذي تريده ، ستظل عالقًا ما بين ساعات الدوام وساعات الراحة .

حتى جاء من يطلبني لقسم الطوارئ ، ومن النادر حدوث ذلك ,طبيب نفسي يُطلب للطوارئ!

أوا تزدحم الكلمات في داخل أحدنا حتى يأتي للمشفى ، يطرق باب قسم الطوارئ في حاله حرجة ، أوا يشكوا الأنسان نفسه لطبيب !

ذهبت مُسرعا ، لاشك أن هناك من يحتاجني ، وليس من شيمي أن أتوانى عن مساعدة أحد ، المدهش حقًا أنه شاب يافع ، التقارير الطبية تشير على أنه 20 سنة أمره مُحير ، وكأنه قد خضع لعصف ذهني شديد ، عرّض دماغه لإجهاد مرتفع لم يسبق له أن تعرّض له من قبل.

كنت أشخص حالته وهو يهذي ، وكأن هناك اثنين منه في جسد واحد، روحان تُصارِعان بعضهما ، فتغلب إحداهما الأخرى ، لتسيطر على عضلة لسانه فتبدأ بالهذيان ، كان يعتذر أشد الإعتذار لشخص ما ،ظننت أنه قد فقد شخصًا يحبه أو شخص له حق عليه ،فسألت والده الذي يجلس أمام باب الغرفة وملامح الحسرة باديةٌ على وجهه.

أخبرني أن توقعي خاطئ، وتبدلت نظراته لشيء من الدهشة والغرابة فسألني إن كان قد حدث شيء.

نفيت ذلك لم أرد أن أجعل أحزانه تتراكم ، كما أنه يبدوا انه ليس في حالة جيدة لأناقشه في الموضوع ،عزمت أن اسال الفتى نفسه عندما يستيقظ ، وبالفعل دخلت لأراه .

لم يرد الشاب أن أتدخل ، شعرت ذلك من نظرته التي وجهها إليّ عندما قلت:

أباك؟

لابد أنه لا يزال يفكر بأمر ما، سأتركه ليرتاح وأعود فيما بعد ،لي معه لقاء ....

(2)

ولدت الشمس من جديد وبسطت أضوائها على امتداد الأفق فاحتضنها بشغف ، تحركت تلك النسمة الباردة لتمرّ عبرّ النافذة المفتوحة فتراقِص الستائر وتقتحم دفئ الغرفة، لتنتشله تلك النسمات من أعماق النوم قارعة أجراس الاستيقاظ ...

نهض بتململ شديد ليتأمل غرفته وكأنه يراها لأول مرة ،أطال النظر وإذ بوهج يتمثّل بهيئة ما!

تُرى ما هذا ؟

ظلّت الألوان تتطاير وتندمج ،محدثة تموج يأسر الناظر...

حمزة....

أخذت نفسًا عميقًا وبدأت أردد الأذكار وأستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ،لكنّ الطيف لم يتلاشى!

ابتسمت بسخرية يبدوا أني قد جننت ، من العاقل الذي يرى الوانًا حيث ألا نور ولا مصابيح ولا أدنى إضاءه؟

بدا الخيال يتمثّل بهيئة ما شيئا فشيئا صورته تتضح كانت الألوان تتداخل بدقة عالية ...

لقد رأه الان...

فتح فاه من الصدمة لم يعتقد أن يرى هذا ؟

ظن أنه سيتمثل أمامه جان أو وحش مخيف أو حتى أبو كيس الذي كانت تحدثه عنه أمه وهو صغير!

إنها دراجة!

نعم الدراجة التي كسرها عندما غضب من والده ، بالرغم من أنها كانت أول هدية يتلقاها في عيد ميلاده...

اختفت الألوان على إيقاع ساعة التنبيه ، حان وقت الجامعة ،نهض وهو لا يعي إن كان ما حدث حلمًا أم كابوسًا أم واقع ،لم يكن في مزاج

يسمح له بالتفكير حتى خرج وكأنما هناك من صفعه على رأسه فأوقف دماغه عن العمل.

توجه بتلقائية للمحاضرة الاولى ، يبدوا أن طريق الجامعة محفوظة لديه في عقله ألا واعي ، جلس وكأنه كتلة لا حياة فيها ،ليعلق ناظريه بالدكتور فحسب....

" لقد ولدنا في هذا العالم وتكبدنا المشقة والتعب ، ووكلنا بإعمار الكون ،فتجد ما وصلنا من العلم اكتشفه اجدادنا من كانوا يسكنون الأرض قبل وجودنا...

فهل تعتقدون أنهم لم يتعبوا في إيصال ذلك لنا ؟ لو

أتينا لنقارن الحال بالحال ..

هل سيكون حَقًّا الاستسلام الخيار الأول والمنفذ الوحيد الذي نلوذ إليه لنعوذ من هذا العالم إذا ما واجهتنا الصعوبات في حياتنا ؟

هل نحن ضعفاء لهذا الحد ؟

في الواقع نعم ! نحن ضعفاء الإرادة إن لم يهبنَ الله قوة من عنده تشحذّ هممنا فتتوقد من جديد ،الحياة ثقيلة على أكتافنا ، تعتصر أفئدتنا وتتركها مفتتة في هذا العالم البائس ، فأن علّقت روحك بالدنيا فستخسر ،ستشعر وكأنما خسارتك هي النهاية الأبدية ، وستعيش

فارضًا على نفسك جوا مميتًا من السقم ، وستموت وأنت لم تحقق الاكتفاء الذي ترجوه بعد .

أنظر حولك!

تلفت لترى ما وهبك الله من خيره العظيم ، نحن ننهل من عطائه حتى في خِضّم المعارك التي نواجهها ونخسر فيها ، فتلك الخسارة هي التي ستجعل منك ثابتًا كالطود العظيم...

ألن تتوقف عن ندب حظك العثر ؟!

وإلقاء اللوم على الزمن والظروف والقدر ؟

يكفيك جحدًا لما أنت فيه من النعم".

كلمات الدكتور استقرت في ذهنه ، بدأت زوابع الأفكار تحرك ما رقد في دماغه ، فقرر زيارته في مكتبه ، مضى وهو لا يعلم كيف وصل للمكتب ،طرق الباب ثلاثًا ودلف للداخل ليقول:

المعذرة ، هل لي أن أحظى من وقتك بالقليل ؟ أنا حقا أحتاج للمساعدة .

ليقول بصدر رحب: تفضل يا بني ،قل ما عندك .

ترددت قبل أن أتحدث ، كنت أخشى أن يخبر الجميع بأني قد جننت ، لكن لابد من الشجاعة فأنا واثق أن ما رأيته كان حقيقي ، أخذت

نفسًا عميقًا وبدأت بسرد قصة لم تكن بالمأساوية ، لكنها كانت بمثابة حرب طاحنة تعتصرني.

لأقول :أنا لا أذكر من طفولتي سوى دراجة أحضرها لي أبي في يوم مولدي ، لقد صادفت تلك الدراجة اليوم صباحًا على هيئة وهجٍ منير تنهدت أتعلم !

كنت غاضبًا في يوم لأن والدي لم يستمع لما أردت أن أقول ،كان يكتفي بفرض الأوامر فحسب ، وأنا لم أكن أتقبّل ذلك ، ما إن كبرت حتى اعتدت على التمرّد شيئا فشيئا ،قمت بكسر تلك الدراجة في حالة من الغضب ، شعرت وكأنما قد كسرت شيئًا فيه ، وعلمت لاحقًا أن والدي كان يقتطع من راتبه ليستطيع توفير بعض المال لشرائها...

لم أكن أهتم ولم أبدي أي علامة تدلُّ على أنني ندمت ، لكن الان بدا شعور غريب يجتاحني ،رهبة تتخللني كلما وقفت أمام أبي لأنظر في عينيه ،وكأنما هناك شيء ما يحدث ؟قال:يا بني ... استمع لي ,الحياة لن تهبّك ما تريده دومًا ، لن ترى ما تريد أن تراه في الصباح ولن تنعم بالراحة التي تريدها ، أن لم تزرع شيئًا ما في داخلك ،أنت تفتقد شيئا يا عزيزي ، إبحث عنه داخلك. ولا عليك عدّ لأبيك أثق أنه سيسامحك.

قلت : وما هو ما أفتقده يا عم ، قل لي أرجوك ؟

قال: الحياة تضج بالأسرار ، ولكل منّا سرّ عليه أن يبحث عنه في حياته ،فابحث عما تفتقده من سعادة ،لكن تريث قبل ذلك ، فقبل أن تشرع بعملية البحث عليك تجريد ذاتك من شهواتها ، أن تنظر للحياة بقلب نقي ،نظرة ليست بدافع الرغبة والسيطرة والتملك..

ابتسمت أظن أني اكتفيت ، نهضت وشكرته على ما قاله واستدرت لأنصرف حتى قال :

بني ابتسم مهما يكن أنت تبدوا أجمل بكثير عندما تفعل ذلك.

أردت أن أريه ابتسامتي فالتفت إليه لم أرى شيئًا، لقد اختفى من على كرسيه كالسراب ، وكأنما ابتلعه الهواء!

أدهشني الأمر ومرة أخرى ظننت أني فقدت عقلي ،لكني لما فعل ، فها أنا ذا أفكر !

أمن المعقول أن يفكر فاقدوا العقول ؟

هناك ينبوع في داخلك...
فلا تتجول بدلو فارغ....

جلال الدين الرومي

(3)

قررت مغادرة الجامعة ، أشعر وأن الجميع أطياف ستختفي فجأة وتتلاشى ،أنا أخشى ذلك حقًا ! أخشى أن يختفي الجميع وأظل أنا ؟!

في طريقي للمنزل ، أترقب الطريق بعيون متلهفة أنتظر منه أن يختفي ايضًا لأضيع مجددا ، لم أشعر بالوقت كيف مضى ، كنت غارقًا في ذهني الذي لم يكن فيه سوى هذه الفكرة تتخبّط وتعدوا كما الثور الهائج ، وفجأة!

وجدت نفسي أقف أمام عتبات بيت متهالك ،وأشجار ذابلة تحيط به، المكان هو نفسه مكان منزلي ولكن أين هو؟ هذا بناء مهجور يبدوا أنه قد رثّ من طول ما لبث ، نظرتُ بعينين خاويتين نظرة تشي بالكثير ، ودخلت.

صعدت الدرج لأصل لطابق الثاني ،حيث كنا نقيم ، لأسمع صرخات مفزعه ترتعِد لها الأجساد .

كانت تأتي من ناحية الباب ، دخلت دون أن أطرق الباب لشدة فزعي ، هالنّي ما رأيت ..

عجوز هرمه تجلس على الأرض ، تبكي بمرارة ،كنت أودُّ سؤالها من هي ؟ وكيف أتت إلى هنا ؟

لكنها رفعت رأسها ونظرت في عيني بعينيها الباكيتين لتقول بنبرة يحتلّها الأسى :

لقد قتلوا ابنتي فلسطين أمام ناظري ،وشردوا ابنتي سوريا الأخرى من حضني ،ودفعوا بالعداوة في قلوب ابناء العراق فانفطر قلبها وقلبي ، رأيت الكثير يا بني ، أشعر بألم كبير يتقوقع هنا.

– أشارت إلى صدرها - وأخذت تبكي..

قلت محاولًا أن أجمع كلمات تناسب الموقف:

أنا حزين حقًا عمّا حلّ بك وببناتك ، لكن هل لك أن تخبريني من أنت ؟؟

لعلي أستطيع مساعدتك في العودة لديارك!

فقالت: أي ديار تلك التي ستأخذني إليها وقد هُجِرت داري ؟أوَ تتسأل من أنا ولم ترَ فيَّ اسمي، أنا يا بني النّور الذي غلّفه الظلام ،أنا وجه قد بهتت ملامحه ،واختفت ابتسامته ،شخص يحِّن للأيام الخالية، أيام المجد والعز ، عندما كنت أعيش بسلام ،أرقب بناتي كيف يكبرن ،وحولهن أولادهن يبتسمون لبسمتهن ، أنا أستقر في كل قلب أنا القومية التي تنتفض في داخلكم جميعًا...

قلت مبتسمًا : أوا تسكنين كل القلوب يا خالة؟ ردّت: ليست كلها يا بني لقد قُتلت قلوب لا زال أصحابها أحياء ، يبدوا أن قلوبهم قد توقفت عن العمل ؟!

قلت وقد فهمت ما ترمي إليه :

لا يا أماه لقد قتلت إنسانيتهم فما عدتِ تشعرين بهم ،هل لك أن تخبريني باسمك الحقيقي ؟

تجاهلت سؤالي وكأنها لم تسمعه ، ونظرت نحو الباب بترقب وكأنها تنتظر أحد قطع لها وعدًا بالعودة وقد شارّف على الوصول ، قالت:

عليك أن تذهب من هنا المكان لن يكون أمنًا بعد الان هناك خطر قريب.

قلت وقد أغضبني أنها تريد أن تطردني من بيتي:

بل أنتِ من عليكِ الرحيل ،أعتقد أن هذا البيت بيتنا !ثم أين والديّ أبي وأمي ؟؟

أبي ... لقد أصدرت الكلمة وقعًا مختلفًا في داخلي ، فحرّكت الآف الزوابع وأيقظت مئات الأعاصير ، أين أبي؟ لقد فقدت تركيزي على ما يبدوا ، فأجابتني :

عليك الذهاب يبدوا أنك تبحث في المكان الخطأ.

قلت والحيرة تتكبدني: إلى أين اذهب ؟ أنا لا أعلم
وجهة سوى هذه ؟ ثم أين من أعرفهم ؟
قالت : اسمع يا بني أنا حقا لا أفهمك ولا أعلم عمّا تتحدث ، لكن هل تعتقد أن هذا المكان هو منزلك حقا ؟ أيقظنني سؤالها من غيبوبتي ، فتلفت لأتمعنَّ في أركان المنزل ، أجول بنظري بين جنباته أستعيد ذكريات قد خُضتها على أرضه ،وبصوت متعب أتاها ردّي:

نعم ! لكن يبدوا أن بريق المنزل قد اختفى كل شيء أصبح حزينًا مثلي أنا ...بهتت ألوانه التي كانت تنبض بالحياة ...

لتقول:

أنا لا أعلم عن هذا المنزل سوى أنه هُجر قبل حين ، كنت أعلم أنه منزل المودّة والحبّ ، فأتيت سرعان ما سمعت خبر هجرانه لأتفحص حاله ،وأُكذب مسمعي ، كنت أتمنى أن يكون خبر هجره إشاعه بائسة يتداولها محبّو الإشاعات ..

عليك الذهاب الان .. أسلُك ذاك الباب سيخرجك من هنا.

قلت وفي ذهني ألف سؤال: من هم ؟

تحدثت وهي تدفعني نحو الباب :

اولئك القتلة ستعلم هويتهم لاحقا .... اذهب يا بني وتوكل على الله فما خاب عبد توكل عليه ،وكن شجاعًا واثبت ،كان الله في عونك!

ادخلتني من باب لأول مرة ألحظه في حياتي ، وأغلقت الباب فمضيت في طريقي المجهول...

الحياة ليست بحثًا عن الذات..
ولكنها رحلة لصنع الذات..
أخلق من نفسك شيئا يصعب تقليده...

سقراط

(4)

كان طريقًا ضيقًا وعلى كثرة غباره كان وكأنه يمضي في رئة مدّخن ،ها هو يتقدم نحو المجهول ، ضحك وبدأ يحادث نفسه:

ماذا يحدث لي ؟ما الذي غير

العالم ؟كان أبي دوًمًا يقول لي:

كن حذرا يا بني ، وترّقب المفاجآت وخذها بعين الرضا ،فالإبتلاءات امتحانات لا يجتازُها الكثيرون.

أيعقل أنني في امتحان الان ؟ هل هذا

ابتلاء لي ؟

تحسس رأسه ومرر يده بين خصلات شعره ، ما خطر في ذهنه هو أنه يحلم الان ،وأي حُلم هذا هذا كابوس لعين من عمل الشيطان . جرّب صفع خدّه ليعلم إن كان نائم أم مستيقظ لكنه لم يكن يحلم بالطبع ، فالألم لا يتسلل إليك في الحلم ، الأحلام تكون مرور أحداث وصور , ترى فيها الكثير وتتمنى دوام بعضها وزوال الاخر وكأنك تشاهد فيلمًا في السينما ...

مضى وقرر أن يفكر بما حدث معه ،الأحداث الغريبة التي حدثت باستمرار وبسرعة مدهشة ،والده الذي لم يره في المنزل وتلك العجوز

التي بدت هائمة على وجهها ، تتحدث عن بيتهم أنه بيت مودّة وحبّ ...بدا يحصي الأحداث ثم خطر بباله اسمها الغريب ليهمس لنفسه:

القومية العربية ..

أين سمعت بهذا المصطلح ، يبدوا مألوف .. ؟

القومية العربية ، أليست أمرا يدل على الوحدة ...لحظة ! ألم تقل أن بناتها هنَّ فلسطين وسوريا والعراق أحقا هي الوحدة العربية التي تشتت في ظل ظروف صعبة ! أحقًا بُترت تلك الأوصال التي كانت تمتدّ لتربط قلوب العرب بعضهم ببعض؟!

ستكون مأساة إذا ما نسي العرب أصلهم ، وتخلوا عن وحدتهم ، فهل أصبحت هذه المأساة قائمة بالفعل ؟

لم يكمل تفكيره لأنه رأى بصيصًا من النّور يتسلل من فوهة بعيدة ، من كم فرحته , جرى نحوه بشغف كبير, بدا الفضولينهش قلبه , ذاك الذي افتقده منذ زمن , دفعه احساسهلاستعاده ذكريات قد غفل عنها..

احيأنًا نمر بمواقف لا تؤثر فينا ،فنتذكرها فيما بعد كحلم ، كنغمه دافئة ، كابتسامة.

تذكّر جده الذي كان يراه وهو يلاحق الأخبار الشيّقة :

فضولك سلاحك أيها البطل لكنه ذو حدين ، فأحسن استعماله .. مضى وعلى ثغره ابتسامة منتصر فقد وصل... رحلة جديدة...

لابأس أن يكون ماضينا أفضل من حاضرنا.
ولكن الشقاء الكامل أن يكون حاضرنا أفضل من غدنا ... يال هاويتنا كم هي واسعة!

محمود درويش

وكأني أنتقل بين العصور !

رجال يرتدون ثيابًا عسكرية على جنوبّهم تصطف الخناجر وبين أيديهم تقف السيوف والرماح ، نظر لهم فرأى عيون لا يعرف الخوف لها دار قلوبهم متسلحة باليقين ، ثوان معدودة والتحم الفريقان ،واحتدّ القتال..

مضى حمزة يجرُّ خطاه بعيدًا عن المعركة والسفك الدموي الذي يحدث ، وصل لقرية قريبة فمضى في زُقاقها ليبتعد عن الجموع ،قليل من الوحدة سيفيد الان ، أتعبه السير وأهلكه تزاحم الأحداث ،فوقف مستندا على الجدار يفكر بصوت عال:

أين أنا يا ترى ؟ في أي عصر أصبحت

؟ وأي حقبة من التاريخ هذه ، زمن

السيوف والرماح!

ضحك وأردف:

لو كنت جادًّا في دراسة كتاب التاريخ فمن المحتمل أني كنت سأعلم أين أنا لكن لم أكن أعتقد أن له فائدة تذكر، حقا عالم تسوده المفاجأت!

جلس ليرتاح قليلا ليسمع صوت معدته المتأففة ، يبدوا أنها جائعة للغاية ، وهو لم يدرك ذلك لهول ما حدث ، تكوّر حول نفسه ، يحتضن أعضائه ليربّت عليها بحنو ، اذا ما كانت ظروفك عثره ستحتاج لحضن دافئ لكي تتحسن حالتك ،جال بفكره صورة الدكتور الذي تبخر وكأنه قطرة ماء في المحيط ، أخذ يسترجع كلماته ماذا يفتقد ؟ وما السر الذي أخبره أن يبحث عنه ؟ أين سيبحث؟

هو لا يعلم حتى ماهية ذاك المفتاح الذي يحتجز السعادة خلفه.

لحظات وغلبه الوهن ، نام لشدة الإعياء ، وارتفعت حرارته مجددا...

فتح عينيه بصعوبة ، تلفت ليلقي نظرة خاطفة عن المكان الذي هو فيه ، كان في غرفة جدرانها مبنية من الطين ، اشتمّ أنفه رائحة الطعام وماهي إلا لحظات ووقع نظره عليه ، منضدة صغيرة دائرية الشكل مخدوشة الجوانب لها ثلاثة أقدام ،عليها صحن قد جبل من الصلصال فيه بعض من الحساء ،وبقايا خبز جاف بجواره.

حملت الصحن وأنا أتوق للطعام، معدتي تعزف ألحان لا تكاد تحتمل، تحسست الحساء فوجدته دافئًا يبدوا أنه لم يكن هنا منذ مدة طويلة ، يا ترى كم من الوقت نمت ؟ سؤال تردد في داخلي ، لكن وماذا في ذلك؟ هل يهمك الوقت أن لم تكن تعلم أين أنت ؟

تنهد بعمق بعد أن أنهى طعامه، ابتسم ومسح على رأسه ليدفع في نفسه شيئا من الطمأنينة، نهض من الفراش، الان انتبه لتلك الكّوّه التي تنساب منها الأضواء ،ليقول:

-نعم الظلام خيّم يا حمزة ،لقد تأخرت !

ثم قال ممازحا اياه:

وماذا في ذلك؟

أنا لا أنتظر شيئا في الواقع!

لقد جننت يا فتى أتداعب نفسك وتلقي بالنكات.!

وضحك وهو يلقي بجسده على الفراش

قرر العودة للنوم لم يكن مستعدا لمواجهة حدث جديد في الظلام، ثم إن الليل قد خلقه الله للراحة لا للعمل، ألم يقل الله سبحانه: (وجعلنا الليل لباسا* وجعلنا النهار معاشا) حسم الأمر سأخلد للنوم والغد سيأتي بعد ساعات ليشبع فضولي .

ابتسمت، أنا سأنام في مكان لا أعلمه في بيت شخص لم أره طوال حياتي ، أليس الأمر شائكا!؟

تذكرت سريري الدافئ ،عذوبة أصوات والديّ عندما كانا يناديني من وراء الباب لأصحوا ، آه هناك أشخاص حتى ذكرياتهم تشعرك بالدفء أطيافهم تقيم في ذاكرتك ،أغمضت عيني استسلمت للنوم متجاهلا الصراع الذي في داخلي، ونمت بسلام مزيف ...

بعد نوم طويل نهضت، فتحت عيني بتباطؤ لم أرَ أحدا أيعقل أن صاحب الدار قد هجرها بعد قدومي أم أنه قد تلاشى؟

ضربت رأسي بخفة تذكرت أني لم أصلي صلاة الفجر وكما يبدوا

إن الظهر قريب!

أخذت الغطاء الذي نمت متلحفا به نفضّت الغبار عنه، وفردته على الأرض، رحت أبحث عن ماء فلم أجد، تذكرت فعل النبي صلى الله

عليه وسلم وصحابته، ضربت كفي بالتراب ضربتان ومسحت بعدهما وجهي... توقفت، القبلة !

إلى أي ناحية أصلي ؟

لم أهتدي لها، أردت الخروج لسؤال أحدهم لكن سرعان ما نفضت رأسي لإبعاد تلك الفكرة، فلا أحد يعرفني قد يظنون أني سارق أو حتى قد يتلاشى البيت، عزمت في نفسي أنه علي أن أصلي الان.

توجهت حيثُ دلني قلبي، وكبرت تكبيرة ارتعدت على إثرها أركان جسدي كلّه، لحظات تنفست فيها السكينة، سالت الله الفرج، وسالته أن يهديني لطريق الرشاد، عذوبة لا توصف، فالعبادة بعد أكوام من المشقة، تسكب الراحة النفسية في الجوارح لتخمد نيران قد حرقك لهيبها، سلمّت ، وانتهت صلاتي، قرأت بعض من التسابيح والأدعية التي أحفظها ورددت آيات القران، شعرت بالأسف يبدوا أني لا أحفظ الكثير منه ، تغمدّني الحزن ، حتى الآيات التي كنت أحفظها لم أعد متمكن منها، جددت نيتي أنه وعندما أعود سأعود لمصحفي لصفحة جديدة بيضاء تخلوا من هذه الشوائب، قررت الخروج من هذا المكان لا أحب الاختباء هنا كالجرذان... أعدت الغطاء لمكانه وددت لو أني أملك ورقة وقلم لأكتب لصاحب البيت رسالة شكر على ما فعله لي، لكن لا يوجد، رفعت يدي للسماء ودعوت الله أن يجزيه

على ما فعله خيرا، وفتحت الباب لأخطوا أول خطوة لي في القرية المجهولة الأركان، بدت خالية من السكّان حتى ظننتها مهجورة لا يسكنها سوى الطيور والحمام والغربان، دلفت من طريق فرعية، لتوصلني إلى طريق طويل وعريض يعجّ بالأصوات المنادية، سوق ضخم، يقف فيه البائعون ليروجوا لبضاعتهم، مضيت وأنا أنظر لهذا وذاك، أراقب المكان وملامح الدهشة تكسوا وجهي ، لم أرَ هذا المنظر في حياتي قط، توقفت لحظة جذبني الفضول لذاك البائع الذي يجلس على الأرض أمام بساط قد فرش بالزهور يحتضن قدميه ويغرق بينهما رأسه ،لا يصرخ باسم ما يبيع على خلاف الاخرين ، سالت ولم ادري ما الذي دفعني لفعل ذلك، قلت:

-أأنت بخير يا عم؟

رفع رأسه ونظر لي نظرة ملؤها الشوق، هبّ ليحتضنني ويقول:

ولدي ولدي لقد اشتقت إليك ...

لا أملك أي ردة فعل لما يحدث، أيعتقد حقا أنني ابنه؟!

***

المأساة الكبرى التي تسقيك إياها الحياة أن تدفعك لتتعثر بالتسعة وثلاثين شبيها لمن فقدت..

احتضنه بشوق الوالد لولده ، فقد ظنه ولده الذي قد فقده إثر حادثة مجهولة، حاول حمزة أن يتملّص من بين يديه ثم بدا يحكي له حكايته ليعلم أنه ليس بابنه.

بدت علامات الأسى تغزوا وجه الأب، ليقول بنبرة تنبأ أنه سيبكي بعد قليل:

ظننتك يوسف، أنت تشببه بل وكأنك هو!

حمزة:

لابأس يا عم لا عليك، لقد أخبرتك بقصتي فهل لك أن تخبرني عن يوسف؟

تعمّدت ذلك شعرت بأن استعادته لذكرياته ستؤنس وحدته هذه، ليقول:

كنا نجتمع حول المنضدة التي نحب ، نجلس فتبدأ الأحاديث بالإنسياب، كان شابا في مثل عمرك، لم يكن يحب أن يعمل معي في حقل الورد، وإنما فضّل تعلم أسس التجارة، حتى أصبح تاجر ماهرا، ومعروفا في قريتنا، بعد فترة من استمراره في العمل، تغير ولدي لم يعد صغيري المدلل، قلت لنفسي إنه المال يفعل الكثير ،لكن لم اشء اخباره بتغيره ،اريده بجواري فقط، في يوم ،دخل غاضبا ملامحه قد بعثرت في وجهه، نظرت له بقلق لأساله، ما به، فغضب وصرخ في

وجهي وقال لي بأني السبب، وأني من تسببت بتعاسته ،شعرت بالغصّة، أينسب تعاسته إليّ وأنا الذي ذبلتُ في الحقول ، وأحببت المشقّة لأجله !

أيعقل أنه أنكر كل ذلك ببساطة؟!

نظرت له نظرة تعبتْ من ملاحقتهِ وهو يمضي ذهابًا وإيابًا ..
نظرت لملامحه التي وطئها الحزن وأجهدتها الأيام، يبدوا أن الزمن قد فعل أفاعيله في وجه هذا العجوز!

دققت النظر كان الهّم قد مضى يشقّ شوارع في بشرته، لقد فقد هذا العم طاقته التي كان يستخدمها لمصارعة الأيام .والان تراه جسد قد فقد روحه التي كانت تبثق فيه الحياة،غابت شمسه التي كان يستمد دفأه منها ولم تطلع منذ ذاك اليوم ،منذ ان خُطِف يوسف.

أشفقت عليه!

كم هو من مؤسف أن تفقد روحا قد اعتدت عليها، وألفتها ،شخصٌ قدمت له قلبك على طبق من ذهب، ورد إليك جميلك بالتجاهل والنفور...

بعد أن أنهى حديثه الذي اعتقدت أنه سرده بالمختصر لصعوبة استذكاره تلك الاحداث.

تركني أنفرد في غرفة، أغرق في أفكاري، أحاول مواجهة الأمواج المتلاطمة ، وكلما أحسست أنني سأصل للحقيقة، دفنتني المياه بين دفاتها وغرقت من جديد. لم يعلم أحد أني لا أحسن السباحة ،ليتني لبيّت رغبة أبي الجامحة في تعليمي إياها.

لكن ليت وما تفعل الان؟

لم أقتنع بقواعد اللغة العربية إلا اليوم، فقد تذكرت أن ليتَ تفيد التمني، وكيف لأمنيات ضائعة أن تعود؟ !

لن يعود الزمن أدراجه للوراء مهما قدمت له من رشوات، إنه يحتمل عصياننا فحسب ،يداري اهتراءنا ،ويلقي بالخيبات على عواتقنا!

من المحتمل أيضا أننا نحن من نفعل ذلك، من نلقي بأنفسنا إلى التهلكة، ونقتاد ذاتنا إلى حيث العكورة ،ربما نكون نحن من نلقي بالخيبات على أنفسنا لتكسر ظهورنا ، نبني المآسي في أفكارنا ونتخيلها أحداثا على أرض الواقع، آه راسيي يكاد ينفجر، ماذا سيحدث لي بعد هذا ؟ هل سَيُفتحُ لي باب جديد يقودني للمجهول ؟

أم ستتلاشى هذه القرية وأنا والجميع؟!

أيعقل أني مت؟ هل

هذا عالم البرزخ؟

هل يموت المرء دون أن يدرك ذلك؟

ما الذي يحدث لي؟ !يبدوا أني على حافة الجنون ! لماذا أتذكر والدي الان؟

أنا حقا أتمنى قدومه ، وددت لو أنقض على حضنه، أطلق لدموعي العنان، أرثي الحاضر، وأعتذر، أطبع قبّلات التوسل له بالرضى عليّ على جبينه!

لا أعلم كم الوقت الان ،ولا أريد أن أعلم، لم يعد ذا قيمة ... أفكار تتصارع في رأسي أشعر وكأني أحمل قنبلة لا رأس، قنبلة موقوتة ستنفجر بعد ثوان، وعلى صوت هذا التضارب الفكري الساحق غفوت، غفوت وأنا أتمنى أن يستمر ذلك طويلا..

صوت غريب لطبول تُقرع يتسلل لأذني، ومن ثم لحلمي، إنه إنذار يُنبئ بنفاذ وقت الراحة، كان آخر ما رأيته أبي ،يبتسم لي ويودعني ملوحا بيده، حلمت به ، يتحدث بجمل أثارت دهشتي وأنا أحلم، لا أذكر شيئا من تلك الجمل، هذا مؤسف!

نهضت وهممت بالخروج لأتفحص هذا الصوت القادم من وراء جُدر، تحركت بخطوات قد اكتسبت قليلا من النشاط بفعل فضولي الذي كما يبدوا أنه يقتادني للموت لا محاله، الغريب أني لم أرَ العم هنا! ترى أين ذهب؟!

مضيت لخارج المنزل، فتحت الباب والفضول يفترس قلبي من كل جانب، نظرت وصعقت بما رأيت، هناك جنود تحمل سيوف ورماح تقف لتحرس المكان، وناصية كبيرة تتدلى منها جثة معلقة ،قد لفظ صاحبها أخر أنفاسه ، أأنا في فيلم مخيف؟

أم أني لا زلت أحلم؟ قررت التقدم بين الجموع لعل أذني تلتقط بِضعا من قصة صاحب هذا الجسد الُمُدّلى فَتُشبِع تلك الكلمات القليل من فضولي، وبالفعل خُضْتُ مع الجموع...

كان الناس يقذفونه بأغلظ الألفاظ، يسبونه ، ويشتمونه، ويقولون أنه يستحق، للحد الذي قلت فيه لنفسي أنه رجل سيء قد ارتكب جرما شنيعا ، ماذا فعل؟ لم ابتدأ سلسلة الأسئلة المتتالية بعد حتى رأيت فتاة تقف مبتعدة عن الحاضرين ، عيناها لا تكاد تحكم الإطباق على دموعها ،وكأنهما غيمتان ستطلقان وابلًا من الودق، كلما سقطت إحدى القطرات مسحتها قبل أن تسمح لها بأن تبلل وجنتيها، حِرتُ في أمرها، فقررت سؤالها من تكون، اقتربت منها دون أن تلحظ كانت تُتمتم كلمات بصوتٍ مسموع لم أسمعه جيدا في البداية لكني اقتربت أكثر فأكثر وقفت حتى اتضحَ لي ما تقول...

رحمة..

أنا أتألم بحق، وكيف لا وأنا أرى جثة أخي الحبيب تتدلى من حبل و تتراقص امامي ، كيف لدموع ان تُرثيك يا أخي؟ أثق أنها لن تستطيع ،وكيف للكلام أن يحرز وقعا يليق بك؟!

لا أذكر سوى أنك كنت خُلقا فاضلا، ولا أدرك ذنبا قد اقترفته سوى أنك كنت مؤمنا تقيا، لقد بلغنا ذاك الزمان الذي تحدث عنه صلى الله عليه وسلم ،الان القابض على دينه كالقابض على الجمر، والمتمسك بأخلاقه لا محل له في عالم اجتاحه الطغيان، رحمك الله يا" نبض "قد كنت تحيي القلوب بذكر الله، كنت تهمس بالقران لتغمر الجسد السكينة، كنت تحاول في قلوب متحجّرة أن تيقن أن لا راحة للنفس إلا به، وأن عليها أن تنبض، لكنكَ رُفِضتَّ، لا بأس إن هذه مشيئة الله وحكمته، إنه الخير قد أتاك، ستعود القلوب لتنبض من جديد يا أخي ، لابد وأن يأتي خيرٌ جديد ليحييها...

توقفت عن الكلام لقد لاحظت أن هناك لصًا يستمع لما تقول، نظرت نحوه نظرة خاطفة ،أرادت الإحتفاظ ببضع من ملامح وجهه، ثم ركضت، كانت سريعة جدا كالعاديات تريد الفوز بالسباق، حاول حمزة اللحاق بها، لكنها فاقته سرعة، فظلت متقدمة، ظل يركض ورأها ليعتذر وليطلع على ما تخفيه، ومن يكون نبض، ومن هي؟ ؟ بات يدرك أن هذا المكان بمثابة الكواليس للواقع الذي نعيشه، عليه أن

يجد تلك الفتاة ليحمل ما تحمله من قيم ،إن هذا قد يكون الحل الوحيد لعودته لعالمه ولتعود الأمور إلى مجاريها...أو إنه الحل الوحيد الذي قد فكر به...

***

هذا العالم يقيم حرب طاحنة ضد الأخلاق الجيدة ، هل أصبح الناس سيئين لهذا الحد، أم أن الأخلاق الجيدة باتت أمرا قديما، وهل يمضي الزمن على الأخلاق فيغيرها ؟هل تهترئ وهي لا تُرى؟!

كانت تجري بسرعة كبيرة حتى رأيتها تدخل لمنزل ما أبوابه مشرّعة، قللت من سرعتي حتى أصبحت أخطوا بثبات، التقط أنفاسي التي تسارعت مع ركضي الشديد ،اقتربت حتى وصلت الباب، كان منزلا عامرا فيه من الناس ما يناهز المئة، من صبية وكبار السن ونساء يجلسن في مكان مبتعد قليلا، الجميع يصغي لما يقوله كبيرهم الذي يجلس على كرسي مرتفع، عيونهم مثبتة على كل ما يفعله من حركات ،كأنهم يتلقفون الكلمة ويتلهفون لسماع ما سيكون بعدها، نظرت بحَثًا عن تلك الفتاة التي لا أعرف اسمها...

الجمع كثير، يصعب إيجادها في مثل هذه الظروف، قررت الجلوس بعد أن تسلل إليّ شبح اليأس ،لأستمع لما يقوله هذا العم...

كان يجلس على الكرسي المرتفع كما يتربع الليث في عرينه، ينظر للجميع باسمًا ويتحدث بطلاقة وكأن الأفكار تتدفق إليه كما يتدفق الماء من النبع، حتى ألقى نظراته عليّ، فنهضت من شرودي لأستمع له.

لاحظت ارتباكه بعدما لحظ وجودي بدا يتلعثم لكنه تابع السرد، بددت ذلك بأني جديد هنا، ربما لحظ غرابة ثيابي أو شيء آخر

ليقرأ بصوت عذب قوله تعالى:

﴿يَومَ يَقولُ الْمُنافِقُونَ والْمنافقَاتُ لِلَّذينَ آمَنوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لهُ بَابٌ بَاطنهُ فيهِ الرَّحْمةُ وَ ظَاهرُهُ مِن قبلهِ العَذَابُ﴾.

سوره الحديد،13.

ليردف: إن المؤمنين يمشون بنورهم وإن المنافقين قد اطفئ الله نورهم فما عاد لهم من نور يهتدون به، فيخاطبون المؤمنين أن انتظرونا لننال من نوركم لكي ننجوا من العذاب ،فقيل (ارجعوا وراءكم)وابحثوا عن نوركم هناك، وهذا غير ممكن بل هو محال، ثم يضرب بحائط منيع وحصين بين المؤمنين والمنافقين، فيه رحمة من ناحية المؤمنين وعذاب من الناحية الاخرى ،فكان جزاء من قدَّم عملًا

لم يقصد به إرضاء الله وإنما كان هدفه أن يعلوا بعين من هم حوله أو رياءً للناس وسمعه ،أن يذهب عمله وجهده أدراج الرياح، وكان ما عمله هباءً منثورًا، فيكون يوم القيامة كالسراب ...هكذا انتهى درس اليوم وما سننفذه اليوم هو أن نصفي نيتنا ونتفكر بما كانت عليه، وما هو عيبها؟ أكانت خالصة لله؟ أكان هذا هدفك؟

إرضاء الله سبحانه الذي خلقها لعبادته، هل قامت نفسك بفعل ما خلقت لأجله؟

ألقى أسالته ونظر إلي بنظرة لم أفهم معناها، أشار لي بيده أن اتبعني، تلفت حولي لعل أشارته لأحد آخر لكن الجميع كانوا ينظرون للأرض بخشوع تام ، فعلمت أني المقصود، فتبعته.

كان الأمر شديد الصعوبة نظراتي كانت مصوبة نحو الارض لكي لا أدوس شخص ما أثناء مسيري، حتى تعثرت فسقطت ، نظرت للأرض وقتها، كانت ذرات الرمل تمسك بأيدي بعضها البعض في حب ووئام، قاطعني من شرودي اليد الممتدة لي لتساعدني، كان هو ذاك الرجل الذي قدّم الدرس قبل قليل. وضعت يدي بيده فنهضت معه أخذني عبر ممر ضيق إلى غرفة مغلقة، ما إن دخلت حتى أغلق الباب بالقفل وابتسم، نظرت لابتسامته بتعجب وقلت:

-ماذا تريد مني؟

ليقول وقد اتسعت ابتسامته:

-لقد كُلف الجميع بالبحث عنك، أنت غير مصرّح لك بالبقاء هنا ،ما كان عليك الدخول لثنايا العالم، فتتعمق بما يحدث، كان عليك أن تصدق ما تراه عينك ظاهرة وتسمع به فقط.

قلت وقد زادت حيرتي:

-لكن ليس كل ما تراه العين حقيقة، هناك الكثير ممن يدّعون شيئا ويُسرّون شيئا أخر، كمثل المنافقين الذين تحدثت عنهم.

ليقول وقد بدا يتجول حولي:

-الجميع لديه جانب منافق، لا يستطع شخص أن يُصرّح بالحقيقة المطلقة ، القصة لابد لها من إضافات، والإشاعات لابد من تهويلها ،إنها قوانين لا يمكن لشخص أن يخرقها ،ومن يتفكر بحاله سيحدث له ما حدث لك.

قلت وأنا أرفع حاجب:

-وما أدراك بقصتي؟

-أنت !أنت أردت البحث عن نفسك في مكان بعيد عن حدود أسرتك، عصيت أباك ونظرت له دوما نظرة كره، كنت ابنا عاقًّا ، لكنك في حياتك كنت تحب الخوض في التفاصيل بالبحث عن الحقائق، كنت

تسعى لإيجاد المشاعر الخالصة والاخلاق السمحة، وما إن سعيت في ذاك الباب حتى حدث لك ما حدث، ليس عليك أن تبحث عن شيء وأنت ناقص لمتكن شخصا جيدا ابدا. ولن تكون، قلت بثقة:

-الجميع يبحث عما ينقصه، أنا وأنت وكل العالم ،لا يهم مدى بلوغ دناءتك، ولكن المهم مدى بحثك عما تريد أن تكون، رغبتك في ترميم أخطائك، وصنع منها حبلًا للنجاح ،لتصبح أفضل. كما أني أعترف بسوئي، ولكن تعلمت درسي جيدا سأعود لأقبّل قدم أبي، وأعتذر له عما بدر مني.

تحولت نظراته لتصبح مخيفة وقال:

-أتظن أن دخول الدار كخروجها، لن تذهب إلى هناك أبدا ،لن ترى عائلتك، ولن أسمح لك بجمع الاخلاق الحسنة.

قلت باستهزاء:

-هل لك أن تقول لي من أي فئة أنت؟ رد

بعدم فهم:

-ماذا تقصد؟

-كنت تتحدث أثناء وعظك للناس عن فئتين إحداهما ضالة وإحداهما ستجد نورها يوم القيامة، ما دمت حكيما للحد الذي جعلك تقيم

دروس الوعظ، إذا تستطيع أن تقول لي من أي فئة أنت؟ رد بغضب: ما شأنك؟

-لن يستجيب لك أحد ما دمت تعامل الناس بعكس ما تقول، أنت منافق إذا؟

رد بنبرة يحاول جاهدا فيها أن يكتم غيظه:

-اخرس قلت:

-يقول الله تعالى :(يأيها الذين آمنوا لمَ تقولون مالا تفعلون)

وبما أنك هكذا فأنت لست منهم أي من المؤمنين.

سكت قليلا وعلامات الغضب تأسر وجهه فقلت:

-والان من فضلك أيها السيد دعني أخرج من هنا وافتح هذا الباب.

نظر لي نظرة مرعبة، لوهلة اعتقدت أنه ينظر بعيون إبليس ليقول بصوت أشبه بفحيح الثعبان:

-وماذا ستفعل إن لم أفتح الباب لك؟ صمت

لم يكن لدي جواب ليقول:

-سأجعلك تتعفن هنا، وأنا سأستمر بألقاء ما أريد في عقول الناس ،أتظن أن جميع الناطقين ينطقون بالحق؟ أم أن الجميع ينفّذ ما يقول

؟إذا ما أردت أن تؤثر على شخص فخاطبه بالمنطق مرة واحدة وبعدها سيستمع لك في كل ما تقول. قال

اخر ما قاله وتلاشى على هيئة كومة من الدخان.

ما هذه المصيبة التي قد وقعت بها، وأين المفر من هذا الان ؟

حاولت فتح الباب ،أدفعه بقوة لكنه لا يفتح، جلست على الارض ،لقد حِرت فيما سأفعل الان. أن صرخت من ذا الذي سيسمعني وأنا هنا تحت الارض لكن لابد من المحاولة ،أخذت اصرخ: ساعدوني ...أنا هنا ساعدوني أرجوكم

صرخت وصرخت وصرخت ولا مجيب، جلست على الأرض من جديد، تمددت أشعر بالجوع والتعب ،ولكن أنى لي أن أنام وأنا لا أملك غطاء ؟!

حاولت إغماض عيني، الجوع يقرصني والبرد كذلك ،كلما هممت أن أغمض عيني حتى رأيت أبي ، آه ...أنا متعب يا أبي، هل لك أن ترى حال ابنك الذي كنت دوما تحرص على راحته، وتطمأن عليه هل تناول عشاءه أم لا وتطرق باب غرفته ليلا لتحكم عليه غطاءه حتى لا يصيبه البرد، أبي!

لو كنت هنا ، لو لم أغضبك يوما!

أغمضت عيني هذه المرة، وأنا أتألم، إن فؤادي يعتصر حسرة، قد تجرعتها طوال معيشتي ،عندما كنت أخفي ضحكتي أمام أبي وأخفي مشاعري تجاهه، عندما كنت مبتعدا عن رضاه ،أبي ..ليتك هنا لتنظر لي، ليتك برفقتي الان، تمسك يدي تربت عليها بحنو، تتغمّدها بين يديك الدافئتين، ورائحتك تضفي عبيرًا للجو...أشعر بالألم .

أخذ يضرب على صدره ويتلوّى في الأرض، كان اليأس قد اكتسحه وانتصر عليه، ظل يتأمل الغرفة بعيون خاوية ، لم يفكر فيما سيفعل، المكان مغلق وتقطعت به السُبل ،الخيبة تقف كالوحش الكاسر في الزاوية تنتظر منه أن يستسلم لتنقضّ عليه...

فتح عينيه رويدا رويدا، نظر للسقف القديم، يبدوا أنه قد نام وقتا لا يعلم كم يبلغ مقداره ، استدار ناحية اليمين، نظر للجدار ،رأى سلاسل وأثار لقيود، يبدوا أن هذا المكان قد شهده الكثير من قبله... نعم لقد كان هذا المكان محكمة تضرب بأيدي من حديد، وتعذب من تريد.

تنفس بعمق، وقال يارب، لا يستطيع الدعاء من شدة ألمه لا يستطيع التفتيش عن دعوة ليطرق باب السماء بها ، قال يارب، وأعادها بصوت مرتفع قليلا، ثم بدأ يكررها ويرفع صوته أكثر وأكثر، حتى صار يصرخ بها ويبكي...

وإذا ما شعرت أن الألم قد فتك بك، وتعدى حدود تحمّلك ،فصرت تبكي وتسال الله الفرج وتدعوا بيقين لطالما خلت منه دعواتك، فثق أن الإجابة ستكون في طريقها إليك، وسترى الفرج يأتيك .

لقد غطّ في نوم عميق، ولا زالت دموعه تنساب من عينيه ،

ولازالت شفاه تنطق ما بين لحظة وأخرى : يارب، أمر حمزة غريب، غريب حقا!

اليوم الأول، والثاني وها هو اليوم الثالث...

لم يطرق الباب أحد، كما أنه كان يحاول مرارا أن ينادي ولم يسمعه أحد، جلس على الأرض ،وعادت له ذكرياته الأخيرة، الأمور الغريبة منذ بدايتها، فضوله ،أبوه، كلمات ذاك الدكتور الجامعي، السعادة، المفتاح ،ما مفتاحه؟!

أيعقل أنه سيموت ؟!

هل يرى سائر ذكرياته الان وكأنها تمضي أمامه لهذا السبب ؟!

فجأه وثب فرحًا، قد يكون هو، قد يكون مفتاح سعادته هو التسلح باليقين، الان وهو وحيد هنا كما كان يوسف في غيابة الجُبّ، تحاصره الظلمة من كل موثق ،ينادي ويطلب نداء البشر ،أكان حقا يرجوا من بشر ضِعاف أن ينقذوه مما هو فيه ؟

تذكر الدعاء الذي هّوّن به يونس- عليه السلام- على نفسه وهو في بطن الحوت

(لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)

فكشف الله سبحانه وتعالى عنه الهمَّ ونجّاه مما كان فيه...
ظل يرددها، وهو على أمل أن يرى بصيص حريته قريب، لكنه حر، قد يتمتع سجين مثله بالحرية، فلا أحد يستطيع أن يمنعك من التفكير فيما تريد، الحرية لا حدود لها، قد تحرم أحد جوانبها لكنك لا تمنع منها كلها..

حمزة ...
سأجد حلًا ،سأنبش ذاكرتي عن أمر ينسيني ما أنا فيه، سأتخذ من نفسي صديقتي ،وسأناقشها فيما يحدث لي حسنا لنبدأ ..سأحكي قصتي كشاب تعيس الحظ...

هناك صوت ما ،صوت خشخشة قادم من وراء الباب الحديدي، اقتربت لأسمع الصوت، لابد أن هناك شخص قادم، هناك شيء يتحرك، قلت في نفسي إنها فرصتي سأنتهزها، أصبحت أنادي وأستغيث أن ساعدوني أرجوكم ،أنا هنا ،وفجأة سمعت صوت صافرة ما ،ومع صوتها فُتِح بابي وباب آخر وأبواب أخرى، لم تسعني الفرحة

سارعت للخروج، لكن ما رأيته لم يمكنني من الحراك خطوة واحدة، كان نمر ضخم ينهش جسد شخص ما، يبدوا أن هذه هي طريقتهم في التخلص من سجنائهم، يال قذارتهم...

أين سأذهب الان؟

هذا النمر يبدوا أنه لم يذق الطعام في حياته قط وجاء ليملأ معدته بلحمي، يا للهول!

تلفت حولي وجدت الناس الذي يخرجون بفرحة كما خرجت ثم تتبدل وجوههم، يرون حتفهم أمام ناظريهم، نظرت فوجدت الطريق طويل، أخذت أجرُّ خطاي الثقيلة، حتى أتتني حرارة النفس ،لا رغبة لي بالموت الان ،سأدافع عن نفسي، أصبحت أركض في الممر، ابتعد وأنا أسمع أصوات صرخات متوالية، وكلما شعرت أن النمر قد أنهى التهام أحد وأنتقل لأخر، زادت سرعتي ورغبتي بالفرار ،النهاية طريق مسدودة لا باب، لا مكان للهرب، وقفت استند على الجدار أنظر للطريق وكأني أنتظر ظهور النمر للانقضاض عليّ، هل من عصى هنا؟ لعلي استطيع ردعه بها، لا شيء حولي، جلست، أصبحت ثقيلا على نفسي، لم تعد لي رغبة في الحياة ،الموت يلتف حولي من كل مكان، حتى سمعت

خشخشة أخرى في الغرفة القريبة مني ،لم أستطع النهوض ، صرت أجتر جسدي على الارض، حبوت حبوًا حتى رأيت الحجارة تزال من

مكانها، رأيت طيف شخص يقف خلف الثقب الصغير الذي في الجدار ،لم أستطع التحدث ،قلت برجاء :ساعدني يارب..

ظهرت رحمة من خلف الثقب رأته فتذكرت ملامحه ،حاولت أن تيقظه لكنه غارق في غيبوبته ،دفعته مرة ومرتين وثلاثة ،لم يستجب ،حتى سمعت صوت النمر يقترب..

أمسكت به من تحت إبطيه وسحبته لداخل الشقّ وأعادت ترميمه كما كان لكي لا تترك أثرا...

رحمة....

اعتدت القدوم للاطمئنان على السجناء ،هذه الزنزانة كانت من قبل لأخي نبض رحمه الله ،ومع زياراتي المتكررة له كان يخبرني أن بابه لا يُفتح، ولكنه يسمع أصوات صافرة ثم وحش كاسر ،ثم صرخات ،ويظل الصوت يرتفع ويعلوا ثم يختفي بعد ساعة أو اثنتين ،وتنتشر رائحة الدم والجثث ، وبعد وفاة نبض آتي إلى هنا ما بين فترة وأخرى أساعد من أستطع من المساجين الأبرياء الذين سجنوا ظلمًا وبهتانًا وزورًا ،وعندما أتيت اليوم صعقت بشاب يحبوا نحوي ،ومن ثم سمعت صوت النمر ، فاقتربت منه كان مغشي عليه ،أنه ذاك الشاب الذي لحق بي ، أمن الممكن أني من تسببت بقدومه إلى هنا ؟

أدخلته معي من الثقب وأغلقت الشق وأخذته عبر ممر ضيق إلى كهف صغير أعيش فيه ،إنه منزلي ،أوصاني أخي قبل وفاته في إحدى زياراتي السرية له أن أنتبه لنفسي وأغادر المنزل خلسة ،فهناك من يتربص بي ،ونفذت أمره ،وانتقلت لكهف صغير في أطراف المدينة أخبرني نبض أنه كان يضع كتبه العلمية هناك وكان يتخذ ذاك المكان لراحته واسترخائه، وبالفعل رأيت المنزل في اليوم الثاني محروقًا كان كومة من الرماد فحسب ، نقلت الشاب معي إلى الكهف، كان يبدوا عليه السقم ،وحرارته مرتفعة ،أحضرت ماءً باردًا من ينبوع قريب ،وأخذت أعتني به ،لقد أحزنني حاله، ولمت نفسي لإحضاره إلى هناك ،لكني لم أرد به سوء ، لقد مر عليه وقت طويل وهو نائم ، وأنا لم أعتد النوم وفي بيتي غريب ،كنت متيقظّة أنتظر منه أن يصحوا ،حتى فتح عينيه شيئا فشيئا ،رأيته ينهض ويضع يده على رأسه ،يبدوا أنه يؤلمه بالفعل ، نظر إلي ،يبدوا أنه يحاول أن يتذكر من أنا، وبالفعل قال:

هذا انتِ ؟

قلت:

أنا أعتذر لإحضارك له، لم أعتقد أنك ملاحق ،ظننتك شخص سيء!

حمزة...

كان الحزن يحتل وجه الفتاة ويصبّ نفسه في كل دفة من أركانه، رأيتها تراقبني وكأنها تنتظر مني أن أصحوا، وضعت يدي على رأسي إنه يؤلم جدا، إنها الفتاة نفسها التي كانت تبكي على ذاك القتيل، الفتاة التي اقتادتني لذاك المكان، كنت غاضبا عليها، لكن مع أعتذارها الشديد وملامحها المتعبة، هدأت من روعي، وقلت لها:

لا عليك...من أنتِ؟

ردت:

أنا رحمة قلت

بتلقائية:

رحمة!

قالت:

نعم ...ماذا كنت تريد مني عندما كنت تراقبني؟ قلت:

لم أكن أراقبك، ولم أنوي إيذائك أنا شخص هائم هنا أبحث عن اللا شيء، عندما رأيتك ، كنت أسبح مع الجموع فسمعتهم يشتمون صاحب الجسد بأقبح الالفاظ وأغلظها ،ظننته سيء، حتى رأيتك تبكين عليه ...كنت أودّ سؤالك فقط من يكون؟ ولماذا أُعدم؟ رحمة -تنهدت :-

إنه أخي ..اسمه نبض، كان شخصًا طيبًا، لكن هذا العالم لا يرى مكانًا للطيبين، كان خُلقا فاضلًا، ولم يكن يُصرّح له بمساعدة الأخرين، في قريتنا ،ليس على حد أن يساعد أحد، من يحتاج لمساعدة عليه أن يذهب لزعيم القرية الذي كنت عنده قبل قليل..

قلت:

أوا ذاك يكون زعيم قريتكم؟

هل أصبح المتغطرسون والجاهلون والمفسدون، يحتلون مناصب الحكم والقيادة؟ قالت بابتسامة :

في نظره أنه يحافظ على دستور القرية، ويحمي قوانينها..

حمزة:

ولم قُتل أخاك لم تجيبيني ؟ رحمة:

لقد اعتدت أنا وأخي مساعدة الشباب الذي يغرقون في ذواتهم فلا يستطيعون مغادرتها، فيعيشون في عالم سلبي مخيف ،عندما تندمج عقولهم مع قبح العالم، وعندما فعل أخي ذلك وساعد شخص ما قبض عليه بتهمة مخالفة القانون، وأن الجميع من الزائرين والمقيمين من يدخلون قريتنا تنطبق عليهم تعاليمها وقوانينها الظالمة ...

حمزة:

ولم لا تغادرون؟ مادامت هذه قرية ظالمة ،

-قلت بسخرية –

واتركوا له الدواب ليكون حاكمًا عليها، فأي من البشر من لديه انسانية يقبل بهذا الذل والهوان!

رحمة:

الأمر ليس كما تعتقد ،القرية محاطة بأسوار منيعة، وليس لها إلا بوابة واحدة للدخول والخروج، يسمح للجميع بدخولها ،لكن لا يسمح لأحد بالخروج منها، غريب! هل دخلت إلى هنا دون أن تمر من تلك البوابة؟ !

قلت:

لا لم أمر بالبوابة التي تتحدثين عنها. أنا لست غريبا فقط بل قصتي غريبة كذلك...

أخبرتها بكل ما حدث لي، كنت بحاجة لتحدث لأحد، لشخص أشاطره أفكاري الهائجة...

رحمة:

يبدوا أن قصتك خيالية حقًا؟ حمزة:

أنتِ لا تصدقين؟!

رحمة:

بل أصدق ...لقد رأيت في رفقتي لأخي شباب مثلك، وعلى اختلاف القصص التي دفعتهم للوصول إلى هنا كانت ظروفكم متشابهة قليلا..

حمزة:

هل لك أن تخبريني هل نجوا؟ هل استطاعوا العودة لديارهم؟ رحمة:

البعض منهم فقط لم يستطع أن يعود، من فقد شجاعته وقدرته على المواصلة، وفضل الإستسلام، والرضوخ للموت.

حمزة:

وما كان مصير المستسلمين؟

رحمة:

الموت بطريقة ما ...هنا في القرية يوجد ثلاثة سجون تختلف في طرق تعذيبها سجن الجبابرة الشمالي، وسجن المخلب الجنوبي ،وسجن الصخرة الذي يقع في الطرف الأوسط من القرية ، كل سجن منهم له طريقه إعدام محددة، قلت: وكيف ذلك؟

رحمة:

تختلف طرق الموت لكنها تؤدي إليه أخيرا، سجن الجبابرة يعدمون ضحاياهم بجعل أقرب الناس إليهم يحملون السكاكين وينهالون عليهم بالطعنات حتى يفقد قدرته على المقاومة ويلفظ أنفاسه . وإن رفضوا، فقد كَتبوا على نفسهم الموت..

حمزة:

وكيف يقتل المُحبّ حبيبه؟

رحمة:

إن لم يفعل سيموت، وإن فعل فقد انتهت مهمته وحصل على وسام شرف من زعيم القرية...

حمزة:

ألا يستطيع أحد إيقافهم؟

رحمة:

بالطبع لا ! عندما ترى الوحشية تستقر في عيون حرس السجون وتنظر لرغبة الناس الجامحة في الحياة، تدرك أنه لن يستطيع أحد إيقافهم...

حمزة:

يا الهي ..تابعي!

رحمة:

سجن المخلب الجنوبي، طريقته وحشية كذلك، فهم يطلقون الحيوانات المفترسة الجائعة، ذوات المخالب ويفتحون أبواب السجناء ،ويتركونهم كوجبة شهية لهم.

حمزة:

كما كاد أن يحدث لي ... كنت سأكون وجبة لذاك النمر لو لم تبعدينِ عن المكان ..أشكرك.

رحمة:

لا تشكرني فأنا من أوقعتك في المأزق الذي كنت فيه..

حمزة:

وسجن الصخرة، أيعذبون بالصخور؟!

رحمة:

لا لكنه محاط بصخور كبيرة لذلك يسمى بالصخرة، يصعب اقتحامه ، لا أحد يعلم كيف يُقتل الابرياء هناك، لكن من دخله فمن المستحيل أن يخرج حيًا، ولا تخرج عظامه حتى!..

حمزة :يال الوحشية !

لاحظت رحمة أن حمزة يمسك بمعدته ،فقالت له:
أعتذر لقد نسيت أنك كنت في السجن لابد وأنك لم تأكل شيئًا منذ أيام، سأحضر لك الطعام في الحال..

لم تمنح حمزة فرصة في الكلام ، خرجت مسرعة، مما أضحكته من تصرفها المتهور هذا ،يبدوا أنها ستساعده ليعود ،لديها الكثير من المعلومات التي ستفيده ، انطلق صوت معدته الجائعة ،فضحك بصوت مرتفع هذه المرة ،لقد افتقد ضحكته تلك المدة ،لكنها عادت والحمد لله ،ولاح الأمل يحلق في السماء من جديد...
لم يمضِ على غياب رحمة الكثير من الوقت ،حتى عادت
تحمل سلة مملؤة بالطعام ..

قلت:

لم تسكنين هنا ؟

فأخبرته بقصة هذا الكهف وهي تقوم بإشعال النار في الموقد...

حمزة:

أمرك غريب ! لماذا لم تخلصِ نبض من أسرهم ما دمت تستطيعين الدخول ؟ رحمة:

كنت أتمنى ذلك ! لكن نبض كان مقيدًا ، جربت ايضًا أن أحطم القيود ، لكن عبث ، كانت صُلبة أصلب من الفُلاذ ..

ندم على سؤالها ، لقد تحطمت نفسيتها وبدى الكسر يلمع في عينيها فاكتظتا بالدموع ، فقال مواسيًا:

هكذا كُتب له أن يرتاح من عناء الحياة ، ثم إن الجميع يقف مكتوف الأيدي أمام مشيئة الله ، إذا أراد أمرا فإنما يقول له كن فيكون، الحزن لا يفي بالغرض إزاء الأمور الصعبة التي يبدوا أنه لا مفر منها ، قد نفقد احبابًا ، أو أي شيء آخر، لكنه الخير بلا شك، أتعلمين!

رفعت عينيها من على النار المتوقدة التي تشعر وكأنما تحرقها هي ، ونظرت إليه ،ليقول:

الإنسان بطبعه مآساوي لأبعد حد ، ما إن يُغَلَق باب في وجهه حتى يصبح جحودا ،لأن نظره يظل مصوبًا لذاك الباب المغلق ،ولكنه ما إن يلتفت حوله حتى يرى أن الله قد فتح له أبواب كثيرة خير من ذاك الذي أغلق ،فلا داعي للحزن...

وقال ممازحا :

لو كنت استطعتِ أن تجعلي نبض يهرب ،لكنتِ أغلقتِ ذاك الشق ،وكنت الان في بطن النمر أليس كذلك ؟ ابتسمت ومسحت الدموع من عينيها وقالت:

صحيح ...أشكرك أنا بخيرًا الان.

ابتسم حمزة وألقى بنفسه على الفراش الذي كان نائما عليه ، يبتسم فقط ،هدأت زوابع فكره الصاخبة .تذكر إن فاقد الشيء يعطيه .كان بالفعل يفتقد كل حرف قاله لرحمة ،لم يكن يواسيها فقط ، بل كانت المواساة له هو ، كان يرمم ذاته بما يقوله لها ، لقد تعاهد مع نفسه أنه لن يكون يائسا وأنه سيظل ذاك الرجل الذي يقف أمام الصعوبات حامًلًا سيفه بكل قوة مستعدا لردع كل هجوم ..ابتسم لقد قال عن نفسه لنفسه أنه رجل... الكلمة التي كان يكره أن يناديه أباه بها كان يفر منها أينما وُجدتْ ،المحن تصنع الرجال ،وما هو فيه قد ولّدّ في ذاته شجاعة الابطال ،ليخوض المزيد من المعارك، وحكمة العلماء ،لان خطواته قد توقعه في مشكلة إذا ما توخى الحذر ..قد غيرت فيه هذه الرحلة الكثير...

(5)

تريث قبل أن تتجهم فقد يكون هناك شخص يستند على ابتسامتك ، شخص يُصَّبِر نفسه بها...

أعدت رحمة الطعام وما أدهشها في نفسها أنها وضعت الطعام على تلك المنضدة التي كان يأكل عليها أخوها نبض ،المنضدة التي هجرتها ولم تستطع أن تأكل عليها وحيدة ،الان ستأكل مع حمزة عليها، ستكمل مسيرة نبض في مساعدة الاخرين، عزمت على ذلك ، ومع أخر صحن تضعه نادت:

حمزة؟!

فتح حمزة عينيه على صوتها وقال

نعم...

نهض وهو لا يصدق لم تختفِ رحمة كما الاخرين اللذين كلما أغمض عيناه تبخروا ،ابتسم لرؤيتها، أخيرًا رأى شيء ثابت لا يتلاشى حالما يراه..

نظرت له رحمة وقالت:

ألست جائعا؟!

قال وهو يلقي بالفراش وينهض:

بلى أنا كذلك ،ها أنا...

جلس أمام الطعام وشكر الله على هذه النعمة التي قد فقدها لثلاثة أيام، كان يستمتع بطعمه كلما بلل ماؤه حلقه المتحجر أعاد فيه الحياة من جديد، ورسم شعورا عذبا في داخله، بعد أن انتهى..

حمزة:

شكرا يا رحمة...

رحمة:

لا شكر على واجب عدّه تكفيرًا عما بدر مني...

ابتسم وقال:

أعلمين إلى أين سأذهب؟

رحمة:

لا أدري؟! أخبرتك أن القصص متشابهة في عمومها لكنها تختلف أيضا!

حمزة:

حسنا ! بخبرتك و رحلاتك مع أخيك هل لك أن تخمّني ما عليّ فعله؟!

رحمة:

صدًقًا لا أعلم ،لكن عليك أن تبحث عما ينقصك، عن الطريقة التي ستخلصك من هذا، ولابد أنك مررت بها، إذا ما ساعدت شخصا هنا، حالة قريبة من حالك في عالمك، قد تعود إلى هناك...

حمزة:

حاله كحالي؟

رحمة:

نعم، كل الذين ساعدهم أخي قالوا هذا قبل عودتهم قالوا

إننا سنعود لتصحيح حالتنا في موطننا ..

حمزة:

كيف عادوا؟

رحمة:

لا أعلم يختفون فجأة!

لاحظت هدوء حمزة لتقول:

أنت لا تصدق؟!

حمزة:

أصدقك بالطبع فكل ما حولي يتلاشى، كنت أفكر فقط في كيف سيكون شعوري إذا ما تلاشيت....

رحمة:

ماذا ستفعل الان؟

حمزة:

ألم تتحدثي عن قصة شخص يشبهني ؟

رحمة: نعم!

حمزة: سأبحث عنه بالتأكيد ...أترافقينني؟

رحمة: إذا احتجت للمساعدة بالتأكيد ،سأكمل مسيرة نبض...

حمزة: إذا لنذهب...

أرشدته رحمة في الذهاب إلى السوق حيث قرر أن يبحث عن شخص ما يشبهه، فكانت تعلم أزقة الطرق، كانت تسلكها للإبتعاد عن الأنظار، فهي أيضا ملاحقة، وحمزة معها الان، الأثنان في خطر إذا ما التقيا بأحد من أعوان ذاك الشرير...

ومن طريق فرعي لأخر، وصلا للسوق اخيرا...

وعلت الأصوات، وسمع أصوات البائعين تتعالى ، مضى حمزة يرقب كل مار في الطريق وكل بائع، لعله يهتدي إلى من يحتاجه ليساعده

ويعود لعالمه ، ظل يبحث لساعات طوال، حتى جنى الليل وأدلى ستائره...

رحمة: تأخر الوقت

حمزة:

عودي للكهف الان!

رحمة: وأنت؟!

حمزة: سأستمر في البحث لعلي أعثر على أمر ما.

رحمة: لا بأس الحق بي حالما تنتهي ،سأذهب الان لزيارة صديقة لي قُبيل العودة سأسالها إذا ما كانت قد رأت شخصا بحاجة للمساعدة ...وداعا!

حمزة: رحمة ...شكرا لك.

ابتسمت واستدارت ذاهبة وغادرت من طريق فرعي لتصل إلى منزل صديقتها...

رحمة...

اعتدت أن أرى صديقتي أمانه كل ليلة تقريبًا، في مكان بقرب منزلها، وعلى غير العادة لم تكن هناك اليوم، جلستُ تحت الشجرة لأنتظرها، منزلها منير على غير العادة وما هي إلا ثوان، حتى رأيت رجال أشداء،

يرتدون خوذات القتال ،ويحملون سيوفا، يخرجون من البيت ،ويتركون الباب خلفهم مفتوحا، ويمسكون بشاب وفتاة عرفتهم جيدا إنهما حبيبة وصادق عندها توقف قلبي، وقطعت أنفاسي، أين أمانة ؟ماذا حدث لها؟

انتظرت ابتعادهم ، وتسللت خلسه تأكدت أن لا أحد ينظر إلي، ودخلت، كانت بركة دم حمراء وخيط دم يمتد إلى الغرفة المجاورة، تبعته وأنا خائف ُ مما سأرى، نظرت ورايتُ شُجاع والد أمانة مرمي على الارض وبركة كبيرة من الدم حوله، اقتربت منه، وقلت بصوت متقطع:

عمي شجـ شجـ شجاع

نظر إلي بنظرة متعبة وقال:

رحمة ، ابحثي عن أمانة أرجوكِ

قلت: سأستدعي الطبيب انتظر شجاع: توقفي، إنهم يحاصرون الطريق المؤدية إلى هنا، أرجوكِ أبحثي عن أمانة...

قلت:سأفعل ..لكن ماذا حدث؟

قال:

يقاتلون الاخلاق، إنهم يتبعوننا، هذه القوانين لابد أن تموت ،لابد أن ينتهي هذا الظلم، ارجوكِ ...اعتني بأمانة يا رحمة لقد أخذوا حبيبة و صادق معهم ولفظ آخر ما لديه من نفس... صعدت رحمة الدرج الذي يقود للطابق العلوي ،ويدها على قلبها ،وصلت الغرفة فوجدتها في فوضى عارمة، وبصوت خافت:

أمانة ...أين أنتِ؟

استجمعت طاقتي وقلت بصوت مرتفع قليلا:

أمانة، أنا رحمة، أين أنت؟

رأيت شيئا يتحرك من خلف الخزانة، اقتربت فوجدتها هي تجلس متكوره تضع يديها على أذنيها وتبكي، اقتربت منها واحتضنتها بقوة، أخذت أبكي معها، قالت:

أبي... أين أبي ؟

حركت رأسي نافية والدموع تتساقط من عيني، لم أستطع البوح بكلمة، وكأنها فهمت ما قلت، فأخذت تبكي بقوة، استجمعت القليل من طاقتي، وقلت: علينا الذهاب من هنا المكان خطير..

قالت: أين صادق و حبيبه ...؟

قلت لأدفع فيها القوة:

سنحررهم لا تخافي ، تعالي الان لنذهب..

رفضت، رحمة:

ليس هذا وقت عنادك يا أمانة، تعالي لنبتعد من هنا..

رفضت جلست بجوارها ولم أدري ما الحل الان، سمعت صوت عربة تقف أمام المنزل، اقتربت من النافذة اختلس النظر ،رأيت رجال يدخلون المنزل ، يحملون جثة عمي شجاع ويلقونها في العربة، أخذت أمانة من يدها وصعدت فيها الدرج لنصل إلى سطح المنزل، أغلقت الباب وتأكدت من إحكامه، ثم أمسكت بها وتوقفت، أين سنذهب؟

أخذت أنظر حولي، بضياع يبدوا أننا سنموت معًا...

حمزة..

ذهبت رحمة وصرت امضي وحيدا، لم أعثر على شيء يذكر، قررت العودة للكهف ،وأخذت الطرق الفرعية، لكن أضعت الطريق، لا أمل مني، كيف سأعود الان أخذت أحاول الاستدلال للطريق وحاولت جاهدا أن أستذكر ملامح الطريق الذي جئت منه، حتى رأيت رحمة تدخل منزل ما، لمحتها من بعيد، عرفتها من حركتها الخفيفة ،قلت قد انقذني الله مجددا، لم أشأ إزعاجها، فجلست أراقب من بعيد أنتظر خروجها، رأيت الحرس يدخلون المنزل والجثة التي خرجوا يحملونها،

لقد أصابني القلق، أيخططون الان لقتل رحمة !اقتربت من البيت أكثر ، وأنا أخشى أن يقتلوها ،نظرت للسماء وقلت:

يارب ...احمها يا الله

حتى رأيتها تقف على السطح أشرت لها بيدي ، فرأيتها خائفة، كنت سأتحدث لولا أنها أشارت لي بأن التزم الصمت، ففعلت ...وأدركت حجم الخطر الذي نحن فيه..

رحمة...

رأيت حمزة يقف في الاسفل ، كنت خائفة خاصة أني أسمع أصواتهم يقتربون، قلت له بهمس:

أتستطيع أن تمسكها ؟

لكنه لم يسمعنِ، حاولت أن أرفع صوتي قليلا ، لكنه لم يسمع ، تلفت حولي ،رأيت حبال نشر الغسيل وقطعت زجاج مكسورة عثرت عليها ، سألت الله القوة وقطعت الحبل ، أحضرته وربطته حول خاصرتها بقوة ومررته من خلف أنبوب مياه قلت لأمانة :

إنزلي هيا

بدا الجنود بطرق الباب وبصفعه بقوة محاولين كسره..

أمانه:

اذهبي أنت

رحمة:

ليس هذا وقت حديث سألحق بك.. هيا

تشجعت قليلا ونزلت ، وبدأت أترك الحبل رويدا رويدا ...حتى وصلت للأسفل ، ساعدها حمزة في فك الحبل ،نظرت بابتسامة ها قد نجت وإذ بالباب يكسر ويدخل الجنود .

حمزة..

أخذت أمانة وساعدتها على النزول وقلت لها:

أتعلمين الطريق لكهف رحمة ؟

حركت رأسها أي نعم فقلت : اذهبي إليه الان وبسرعة نظرتُ لرحمه في الاعلى فلاحظت التفاتها لأمر خطير، فقلت:اذهبي فلم تعترض وذهبت صرخت الان:

رحمة اقفزي

رأيت نظراتها الخائفة ووعيد الرجال لها ،وقلت بصراخ:

اقفزي

دهشت من استجابتها السريعة وقفزت بالفعل قبل أن يمسكوها ،أمسكت بها، شعرت بأني أذيت ساقي، فسقوطها علي آلمني ، لكني تماسكت فلست أنا من أضعف، قلت :

لنهرب هيا

وأخذتها من طريق فرعي أخر غير ذاك الذي ذهبت منه أمانة، لأحرص على أن تكون بخير ، كنت أركض و لا أدري إلى أين حتى نطقت رحمة:

من هنا يا حمزة.

تبعتها ،حتى أصبحنا نمضي بين الصخور ،رأيت بئر ،يبدوا مهجورا ، رفعت غطاءه وقالت:

اقفز قلت: أجننتِ ؟

رحمة : هيا يا حمزة ثق بي.

قلت لها:اقفزي أنتِ أولا

قالت:

سأقفز بعد إغلاق البئر، رأيتها تلف عقدة خفيفة حول الغطاء علمت أنها ستقفز وهي تمسكه فيرتفع الغطاء مكانه ومن ثم تسقط هي والحبل، قفزت، كان بئرا عميقا، هبطت أخيرا على عدد من الأغطية

التي خففت حدة سقوطي فلم أصب بأذى ،وابتعدت فإذا بها تسقط خلفي، أغمضت عينيها ثم فتحتهم وابتسمت، وقالت:

نجونا !

قلت: بفضل الله ...ما هذا المكان؟

رحمة: أخبرني نبض عنه من قبل ولكني لم آتِ هنا قط ولم أعتقد أني سآتي هنا بالفعل قال لي أنه إذا حوصرتِ يا أختي اقفزي في البئر ،وعلمني العقدة التي لففتها حول الغطاء...

حمزة بابتسامة:

يبدوا أنه حماكِ وهو ميت!

ابتسمت وقالت:

نعم، كان يخشى دوما علي من هذا، لذا حفر الكثير من الطرق الفرعية ثم قالت: لنذهب الان تبعتها....

حمزة: هل سنصل للكهف؟

رحمة:

نعم...أتسال هل أمانة بخير؟

حمزة : أخبرتها أن تنتظرك في الكهف لابد أنها وصلت.

رحمه: صحيح كيف وصلت الينا؟

حمزة: أضعت الطريق

ردت ضاحكة:من حسن حظي..

وصلا للكهف وبالفعل وجدا أمانة تقف على بابه وتنظر للطريق بقلق، تحركت رحمة بهدوء حتى اقتربت منها وقالت: أمسكت بك وضحكت على عكس أمانة التي ابتسمت ثم أخذت تبكي تركت الصديقين معا وذهبت لأستريح قليلا، تمددت نظرت للجدار بعيون خاوية ،الخطر قد اشتد، وماذا ستكون الخطوة الثانية؟!

قلت في نفسي لن أفكر في الثانية حتى أتمّ الاولى، وغفوت...

في الصباح كانت أمانة تصرخ، نهضت فزعا، توجهت نحوهما، فوجدت رحمة ملقاة على الارض، توجهت نحوها وقلت لأمانه:

ماذا حدث لها؟

أمانه:لا أدري صحوت فوجدتها هكذا!

أخذ حمزة يتحسس جبينها ،حرارتها مرتفعة حملها وقال:

ابقي هنا سأخذها لطبيب

أمانه:

توقف المكان خطير الجنود يحاصرون المكان واذا ما عثروا عليكما سيقتلونكما

حمزة بغضب: أأتركها هكذا؟

أمانه بحزن:

ما باليد حيله، لي صديقة تعمل في صرف الأعشاب الطبية سأخبرها أن تصرف لي دواء يخفض الحرارة

حمزة بغضب:

هل تركها بهذه الحالة هو الحل الأمثل؟ أمانه استمعي إلي سأذهب للبحث عن طبيب يساعدنا ،سأسعى جاهدا لإحضار الدواء لها، أرجوكِ اعتني بها لحين عودتي!

ردت أمانه:

المكان خطير عليك، ستقتل!

قلت باسما:

لعلي أحظى بميتة رجل شجاع، إن حدث ذلك فقولي لها شكرا على كل شيء، وإذا استطاعت أن تصل لابي فلتقل له أني آسف على كل ما بدر مني و أني أحبه واستدار وغادر المكان...

مضى حمزة في الطرق الفرعية ،لا يعلم وجهة محددة ليذهب إليها، فضّل أن يقتصر سيره على حدود القرية فلا يدخل في جوفها، في النهاية هو لا يريد أن يراه أحد ،ظل يبحث في المجموعات السكنية البسيطة، يسال هذا وذاك عن طبيب هنا يصرف الدواء ، بحث بشكل متواصل يوم وليله، وعندما شعر بأنه ابتعد، فكر في العودة لكنه لن يعود خائبا، كلما أراد أن يرتاح تذكر أن رحمه ستصارع المرض لوقت أطول بسببه، فمضى، بدأ يتحرك بين الصخور حتى رأى شابا يدخل لكهف صغير أشبه بالذي تعيش فيه رحمه، عبث به الفضول فلحق به ،عندما رأى مجموعة من الشباب ،عضلاتهم مفتولة ، نظراتهم مخيفة، اختبأ بين الصخور، فسمع أحدهم يقول للشاب الذي دخل توًا: ماذا رأيت يا مؤمن؟

مؤمن :إنهم يستعدون ليوم إعدام جديد يكون على حملتان إحداهما في سجن الجبابرة والأخرى في سجن الصخرة قال أحدهم: كيف سننفذ الامر ..؟!

رد الاخر:

سندمر السجون، إن فعلنا ستهدم نصف القوانين وسيختفي الخوف من الدستور، وسيعود الخير من جديد...

مؤمن:

لما لا ندمر الحدود ..لحظة أتسمعون شيئا غريبا؟ أشار له أحدهم أن اصمت، رفع سيفه وتقدم نحو الصخرة التي يختبأ حمزة خلفها واشهر سيفه في وجهه..

قال: من أنت؟

حمزة:اسمي حمزة وأنا غريب عن هذه الديار.

رد عليه: وماذا تفعل هنا يا حمزة؟

حمزه:لا أعلم يبدوا أنه علي إيجاد شخص شبيه بي لأساعده ومن ثم أعود لعالمي قال أحدهم:

حمزة أأنت الملاحق من قبل زعيم القرية؟

رد حمزه: ملاحق! أصبحت مشهورا...

أعاد سيفه إلى غمده وقال:

ماذا تريد منا يا حمزة؟

حمزة: سأساعدكم

مؤمن: أوا تستطيع؟

حمزة: سأفعل ما أستطيعه .

مؤمن: ومهمتك؟

حمزة:

لا أريد أن أدخل هذا المكان وأخرج منه دون أن أترك أثرا ،لابد وأن أساعدكم ، ليس من عادتي السكوت على الباطل-تذكر أمانه ورحمة وتلك العجوز والعم الكبير - كما أن الظلم هنا لم يعد يحتمل ..هناك الكثير ممن يعانون بصمت، افئدتهم تعتصر ألَما .وهذا لا أرضاه لي فكيف أرضاه لهم

قال الاخر : لا بأس أنا إسلام وهذا مؤمن وهذا أمهرنا في استخدام السيف مهند نحن هنا لـ...

قاطعه مهند قائلا:هناك حملتان ستقومان بإعدام عدد من الاخلاق نخطط لتحرير المساجين وتدمير السجن إن استطعنا ومن ثم هدم السور أو فتح بوابات أخرى ...

قال حمزة: أي سجن تريد أن تدمر؟

مهند :

السجن الشمالي أولا...

حمزة:

لدي رجاء، أن هناك فتاة متعبة تحتاج لدواء وهي ملاحقة أي لا نستطيع أخذها لطبيب ، فأين سأجد دواء الحمى؟

إسلام

: أين تسكن الفتاة؟

حمزة بنظرة شك: وماذا تريد منها؟

اسلام:أهي من سكان الكهوف؟

حمزة:الجنوبي منها..

مؤمن: أتتحدث عن رحمة؟

حمزة: أتعرف رحمه؟

إسلام:

مهند سأتولى مهمه إيصال الدواء لرحمة، فأنا مغادر وفق الخطة لحدود الباحة الجنوبية لأحصي كم حارس يقف أمام البوابة ومعلومات أخرى

مهند: إذا ستوكل إليك مهمة إيصال الدواء لرحمة، تحرك حالا...

إسلام: حسنا السلام عليكم...

وعليكم السلام -رد الجميع بها –

مهند: لا عليك ستكون بخير...

حمزة ابتسم وقال: من أين تعرفونها؟

مهند:

إنها فتاة صالحة، تتجسد في المخلوقات لتبعث الطمأنينة أينما حلت، إنها الرحمة التي يسعون لقتلها في نفوسنا إنها تساعد الكثيرين..

تذكر حمزة أنه لم يسال عن أمانه فقال:

أعرفت فتاة تدعى أمانة؟

رد مؤمن: نعم إنها الخلق الفاضل الذي تحلى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتاة محبة للخير، أضاعها الجميع في كل نواحي حياتهم ،ومع الأسف ..أبوها شجاع وأخوها صادق ولها أخت تدعى حبيبه، وأمهم طيبة قد أعدمت في سجن المخلب ، أنهم عائلة طيبة تجمع الحب والصدق والشجاعة والأمانة والطيبة...

حمزة: لقد علمت أن والدها قُتل ،وقد أُسروا الباقي ولم يبقَ منهم سوى أمانة...

مهند: أقتل العم شجاع؟

مؤمن: يالها من فاجعة!

مهند والدمع في عينيه:

رحمه الله

حمزة:

هل لي أن أعلم كيف تعرفه؟

مهند:

أنا المهند السيف الذي يضرب ببسالة ، كنت صغيرا عندما فقدت والداي، فأخذني العم شجاع عنده، واحتواني في بيته، وعلمني الشجاعة واستعمال السيف ..

حمزة:

هل جميع الأخلاق هنا تعرف بعضها؟

مهند:

هي لم تفترق ابدا ولن تفترق ما وجدت، إنه ترابط الاخلاق الذي يكون بناءً صلبا يستطيع الصمود ..

حمزة:

فهمت

مؤمن:

ما الخطوة القادمة يا مهند؟

مهند: اسمعني يا مؤمن ،علينا إنقاذ صادق وحبيبه، فالصدق من شيم المؤمنين، والحب ركن يبنى عليه الوجود، لن أتوانى عن فعل ذلك، سنبذل جهدنا...

حمزة:

ألا يوجد طريق فرعية تدخلك إلى السجن؟

مؤمن:

يوجد في سجن الجبابرة طريق أعرفه، قد استطيع الذهاب إلى هناك لأصل لصادق وحبيبه!

حمزة:

لكنك لا تعلم في أي السجنيّ هما، ذهابك مخاطرة فإن امسكوا بك ستكون النهاية مأساوية...

مؤمن:

لا عليك، سأبحث، وسأحاول جاهدًا إيجادهما..

حمزة:

ستقتل أنت أيضا إذا أمسكوك!

مؤمن:

أتعلم! هذا لا يهمني ...المؤمنون لا ينظرون للدنيا بلهفة الاخرين، أنهم يعاملونها بلطف حتى ينتهوا منها فيذهبوا إلى ربهم ،وهناك يلقون حياتهم التي يحبون، والتي كانوا لها يعملون ..،الموت ليس النهاية يا عزيزي، إنه بداية حياة جديدة، وعالم آخر...

حمزة: لكن أنت أيها الايمان إن فقدت فمن ذا الذي سيحل محلك؟

مؤمن: المؤمنون موجودون في كل مكان ،ما إن أموت حتى يأتي شخص لإحيائي من جديد بأمر الله، فالأخلاق لا تموت، إنما تُجرَحُ، وتُفقَدُ ،وتكسر، وما إن يحدث ذلك حتى تراها ترمم ذاتها ،وتجمع شظايا نفسها..

مهند: والان يا مؤمن وحمزة علينا بدأ العمل..

حمزة ومؤمن: حسنا!

مهند:

مؤمن ستذهب إلى السجن الشمالي، عليك أن تسعى جاهدًا للعودة بسلام ..وعند وصولك للسجن لا تقدم على أي خطوة ،فكل الخطوات ستكون خطيرة، مهمتك الوحيدة هي استقصاء خبر وجود صادق وحبيبة...

مؤمن: لكن إن كان المكان آمن؟!

مهند: لن يكون، هم يحكمون المراقبة ، ينظرون إلى عيون مساجينهم باستمرار، ليراقبوا أملهم في النجاة، فإن رأوه كبيرا، حرصوا على إبادته، ومن المحتمل أن تكون المراقبة للسجناء لأعينهم وملامحهم، فما إن يراك صادق و تنفرج أسارير وجهه ،ويمسك بك...

مؤمن :

فهمت، سأكتفي بالاستطلاع، متى سأذهب ؟

مهند:

سيتحرك كل منكما إلى مهمته مع غروب شمس الغد عندما يعود اسلام بأخباره..

حمزة :

وما هي مهمتي؟

مهند:

في سوق التجار الكبير لابد وأنك سمعت عنه !؟

حمزة: سوق؟! صحيح تذكرته، ذاك الطريق الضخم الذي فرشت أرضه بالبضائع؟!

مهند: إنه هو، ولو كان في هذه القرية غير هذا السوق لأخبرتك...

حمزة: إذا هو السوق الوحيد هنا..

مهند: نعم، ستكون قريبا من مخالطة العامة، وبذا قد تتمكن من العثور على شخص بحاجتك، وأنت تقوم بالمهمة..

حمزة :عصفوران في حجر واحد!

مهند بابتسامة:

شيء من هذا القبيل، اسمعني الان، لي صديق يعمل هناك ،يجلب لنا الأخبار الخارجية، برحلاته مع القوافل ، صديقي هذا يسمى العم فاضل، عليك مقابلته، سيعطيك بعض الأسلحه والنصائح، لكن توخى الحذر.

حمزة: سأفعل!

مهند: عليك تغير ملابسك أولا، فلا بد أنهم قد أبلغوا عنك؟

حمزة: أيبلغون عني أم عن ملابسي؟

مؤمن : قريتنا محدودة الموارد، لا يوجد طريقة سوى هذه ،أن يبلغوا عن ثيابك والوانها وشكلها، فانت تعلم إن ملابسك غريبة عن منطقتنا، ويسهل التميز أنك غريب؟!

حمزة: وكيف يمسكون بالمطلوبين من غير أمثالي؟

مؤمن: إنهم يسعون لأمثالك فقط، لأن الأخلاق باتت تسكن حدود القرية ،فلم يعد لها أثر كبير، ومن يدخل القرية منّا ،يمسك به..

حمزة: وكيف يستطيعون تميزكم؟

مهند: الملامح تتكلم يا صديقي، النور يظهر في عيون الصادقين ...كُفّي عن الحديث الان، عليكما أخذ قسط من الراحة لتكونا في أوج نشاطكما غدا.

مؤمن: تعال معي يا حمزة سأعطيك ملابس وغطاء..

حمزة: هيا إذا.

مهند...

ما أخشاه هو أن يحدث أمر غير متوقع، لطالما برع زعيم القرية بنصب المكائد لنا، لكنه لم يبدِ أي خطوة إلى الان، رغم أن حمزة خطير عليه ، لا يُخشى إلا من البحر الهادئ ،وهذا ما أخافه..

مؤمن: بماذا تفكر ؟

مهند بتنهد: أخشى من الغد...

مؤمن: سيكون الله معنا وسيؤيدنا بنصر من عنده، فكما تعلم مهما طال عمر الظلم فلابد أن ينتهي..

مهند: أين ذهب حمزة ؟

مؤمن: للنوم!

مهند: جيد ..علينا الحفاظ على حياته، أنت تعلم أن هناك أسطورة لهذه القرية تقول : إن هناك زائر سيأتي للقرية سيترك مهمته ويساعد الاخلاق هنا..

مؤمن: أعلم.. -وبدهشة -هل تعتقد أن حمزة...

مهند: الفرسان الذين ساعدناهم من قبل، كانوا كحمزة ،لكن ما إن يعلمون ببطش السجون هنا ،حتى يسارعوا في البحث عن مهمتهم، ليعودوا لحياتهم، وينتهي هذا الكابوس بالنسبة لهم ، لم يفكر شخص فينا من قبل ،ولم يعرض شخص علينا المساعدة كذلك ،أليس الأمر محيرا؟!

مؤمن: نهاية الأسطورة كانت ،بزوال الظلم صحيح؟

مهند :نعم ،لكن الأسطورة تقول أن لديه الكثير من المعارف من العامة اللذين سيساعدونه في الاقتحام، وحمزة لا يعرف أحدا سوى رحمة وأمانة..

مؤمن :لا تستبق الأحداث ،سيأتي كل شيء في وقته

مهند :سأفعل ..سأذهب للنوم الان..

لقد خلد الجميع للنوم، وغفت أفكارهم في أدمغتهم، الجميع عالق بين اليأس والأمل، مشاعر متضاربة، الخوف من القادم من المجهول الذي سيأتي بخيره وشره، ينامون بهدوء يتضح على محياهم، وما في داخلهم يخضع لخضم المعارك، الخوف يعتري الأرواح، يلتهم الأنفس لكن رحمة الله واسعة، فينزل السكينة على قلوبهم، فيجبر المكسورين، ويكون عونًا للمستضعفين وينصر المظلومين، فتداعب الطمأنينة قلوبهم، ويغفون على :(يارب وكلتك امري)

النجاح ليس نهاية الطريق والفشل قد لا يميتنا ،لكنها الشجاعة فقط التي تجعلنا نكمل الطريق دائما في أي ظرف كان

تشرشل

رحمة..

رحمة:أمانة!

أمانة وهي تمسك بيدها:كيف أصبحتِ؟

رحمة:الحمد لله.. -تلفتت-أين حمزة؟

أمانه: ذهب ليبحث لك عن دواء فوجد إسلام ومهند ومؤمن وجماعتهم، فقرر مساعدتهم.

رحمة: ومهمته؟!

امانه: لا أدري كان إسلام على عجل ،أحضر الدواء وغادر.

رحمة : أتمنى أن يكون بخير!

أمانة: أنا أيضًا، إنه فتى نبيل يستحق...

رحمة: أخشى أن يصيبه مكروه

أمانة: لا عليك، سيكون بخير!

رحمة:

ارجوا ذلك من أعماق قلبي..

لقد دخل الكهف والفزع بادٍ على وجهه، ليصرخ :

مهند مؤمن حمزة هيا انهضوا

نهض الجميع فزعا ليقول مهند:

ماذا حدث يا إسلام؟

إسلام : لقد جعلوا موعد الإعدام اليوم..

مهند: !!مؤمن: !!

حمزة: ماذا؟ وما العمل؟

مهند: أخبرني بكل ما تعلم..

إسلام:

كنت استقصي الأخبار، فسمعت أنه سيعدمون عشر من الأخلاق، وأن الزعيم أخبرهم أن يتريثوا لسبب لا يعلمونه، انصرف الحرس، فتسللت للداخل، نظرت للمساجين كانوا قد قيدوا من أقدامهم وأيديهم، وآثار الجلد تظهر على أجساد بعضهم، والأخرون مضرّجون بالدماء، همست لاحدهم: أتعلم إن كان هنا شخص يدعى صادق، فصاح يبكي، أنه رأهم يعذبونه بوحشية، فسألته إن كانت حبيبه هنا، فقال إنها في سجن المخلب، وإن صادق سينقل إلى سجن الصخرة، في الغد...وأن هناك حمله إعدام ستكون اليوم لخمس مساجين حبيبه من ضمنهم..

مهند: يا الهي!

مؤمن: علينا التحرك، تغيرت الخطة.

مهند: أجل! حمزة وأنا سنتسلل لسجن المخلب..

حمزة، لكن السجن يقود لكهف رحمة؟!

مهند: إسلام ستوكل إليك مهمة نقل رحمة وأمانة لمكان آمن، ومؤمن عليك الذهاب للعم فاضل وأخذ الأسلحة منه..فلنتحرك هيا..

حمزة..

أعطاني مهند سلاح، نظرت للسيف الذي أحمله، لم أعتقد في حياتي قط أن حياتي ستكون بيدي، سمعته يتحدث عن التسلل لسجن المخلب، لكنه يقود لكهف رحمة، وهو لا يريد أن تؤذى، كما أن رحمة ستتألم إن تركت هذا الكهف، فهو المتبقي لها من رائحة أخيها، لكن لا خيار آخر!

ذهبت مع مهند وإسلام، كنا نجري ونسلك أقصر الطرق، لنصل بسرعة، وصلنا في نصف يوم، ولم يتبقَ سوى ساعات قلة من موعد الإعدام، دخلت للكهف فاستقبلتني أمانة، كانت رحمة نائمة ،ملامحها مقتضبة ،فقال: رحمة ..هيا انهضي يا رحمة...

فتحت عينيها شيئا فشيئا ونظرت له بفرح:

أنت بخير؟

حمزة: عليك الخروج من هنا سنقتحم السجن لإنقاذ حبيبه، عليك المغادرة فقد يصبح المكان خطيرا..

رحمة: لكن يا حمزة...!

حمزة: أعلم لا وقت للكلام الان، سأخبرك بأمر مهم لاحقا، غادري الان.

رحمة: سأفعل

نهضت بتباطؤ وساعدتها أمانة على ذلك فهي لا تزال متعبة ،وخرجت من الكهف برفقة إسلام، وسرعان ما دخل حمزة ولحق به مهند عبر الممر الضيق وصولا للشق الذي يقود للسجن..

مهند: سيكون أمرا رائعا إن وجدنا حبيبه في تلك الحجرة ،دون مواجهة نمر شرس.

حمزة: أسنقتل النمر؟

مهند: أأنت خائف؟

حمزة: بعض الشيء!

مهند: من العيب أن يعترف شاب مثلك بمخاوفه

حمزة: قد يكون الضعف في بعض المواقف قوة، تخيل أن أخفي عنك توتري وتصيبني رهبة أمام ذاك النمر، فأقع مغشي علي.

مهند: ستكون مأساة

حمزة بضحكة: لن أفعل ذلك، هيا اصمت الان ها قد وصلنا .

مهند نظر للشق وأراد أن يرفع إحدى الأحجار فأمسك به حمزة الذي شعر بحركة خلف الجدار...

الصوت: ينتهي كل شيء، سنحضر حمزة قريبا إلى هنا فلا تقلق سيدي

رد: أتمنى ذلك ..كل شيء جاهز لنبدأ الإعدام، فلنخرج هيا!
الصوت: أمرك سيدي!

وما هي إلا ثوان وأطلقت الصافرة، نظر حمزة لمهند وقال:

لدي شعور سيء !

مهند: هيا لنذهب لا وقت لدينا ،تحدى مخاوفك

حمزة: لست خائف قلت شعور سيء فحسب

مهند: استمع سأذهب لإحضار حبيبه أبقى هنا في هذا الشق إياك أن تخرج .

حمزة: أتيت لأساعدك

مهند: ستفعل قد نستطيع تحرير الجميع، وأن حدث أمر سيء فسأقول تبا لك بصوت مرتفع، وداعا ...لا تتحرك.

خرج مهند تاركا حمزة في الشق ،كان عليه أن يتوخى الحذر وينتبه لحمزة ، نظر للغرفة فوجدها خالية، خرج للممر فلم يرَ نمر كما المفترض أن يرى، لم يكن هناك أحد سوى الزعيم يضع يد بيد ويقول: من أين ظهر فأرنا؟

مهند..

كنت خائفا على حمزة، لا زالت آمالي بأنه هو من سيحرر الجميع فهو شاب شجاع، تركته وذهبت، لكن لم يكن هناك شيء هدوء عارم، حتى رأيت الزعيم يقف أمامي ،ونظرات الغضب في عينيه، وابتسامة النصر على شفتيه، نظرت خلفي فوجدت شابا يحمل سيفا يخرج من الغرفة التي خلفي، علمت ان لا مجال للهرب فصرخت لابعد حمزه: تبااا لك تبا لك

حمزة: ماذا يحدث؟ أألحق به ، قد يغضب إن فعلت ذلك ،أمرني إن قال العبارة تلك أن أغلق الشق وانسحب، وبالفعل ،أغلقت الشق،

ليس خوفا على نفسي بل لأني علمت أنه يثق بأني سأفك هذا الظلم،

تراجعت للخلف خطوات فرأيت ذاك الوغد يجر مهند ويقول:

دلني على الشق الذي خرجت منه

مهند: في أحلامك

لم يكن مهند شابا ضعيفا لكنهم كانوا أقوياء جدا، تمنيت لو أنه استطاع الهروب معي..

الزعيم وهو يضع السيف على معدته:
أخبرني كيف أتيت إلى هنا؟

مهند: قلت في أحلامك !

الزعيم:

أتظن أني أحمق، علمت أن حمزة قد هرب، ووجدت سجين كان من اتباعنا كان قد قدم مساعدة لأحد فحكم عليه بالموت، لم يؤكل تماما، كان قلبه ينبض، واستعاد وعيه ،فاستجوبته ووعدته بالنجاة إن اعترف أين حمزة، فذكر لي من أين ذهب ،وعلمت من أي حجرة اختفى، وها أنا أوقعت بك يا مهند....

مهند: يا لك من خبيث، أين حبيبه؟

الزعيم:

في سجن الجبابرة، ستعدم هناك بعد أن يقتلها صادق وإن لم يستطع قتلها سيعدمان في سجن الصخرة.

مهند: كيف ذلك؟

الزعيم:

أعلم أنك تتبع الأخبار بطريقة ما، فنشرتُ الخونة في السجن ،وقد رأى صديقك أحدهم فكان من السهل الإيقاع بك ..ظننتك حمزة لكن لا بأس بك..

مهند: أخائف من حمزة؟

الزعيم: أخرس ستموتون جميعا.

مهند: لابأس، فلتلذ بالفرار أيها البطل.

حمزة..

علمت أن العبارة الأخيرة لي وليس للزعيم، خرجت مسرعا من الكهف فوجدت مؤمن ينتظر أمامه، رأيته يحمل مسدسا ويقول:

هذا سلاح جديد لكني لا أعرف كيف يستخدم! أين مهند؟ أمسكت بيده وأخذته لأعلى الجبل بعدما أطلقت رصاصة داخل الكهف، أردت

أن يسمعوا صوتها فأُريح مهند من الاستجواب ،رأيت الزعيم يخرج بعد لحظات من الكهف ،ينظر بغضب، يجوب المكان حيرانًا، كنت أتمنى لو أُطلق النار عليه، لكنه بعيد ولن أصيبه فأنا لا أجيد ذلك.. غادرنا بعد أن أخبرت مؤمن بما حصل وذهبنا لبيت العم فاضل الذي ابيضت عيناه حزنًا على مهند، كنت أجلس وحيدًا تطوقني غمامة أسى، لم استطع مساعدة مهند وقد يموت ايضًا، ولا أدري ما العمل... حتى أتت رحمة

رحمة : أأنت حزين ؟

حمزة: أنا السبب، لو استطعت مساعدته لتمكن من النجاة لكني جبان جبان.

رحمة: لا تحزن يا حمزة، سيأتي الفرج مهما أعسرت الحياة ..كما أن مهند يثق بك وأنا كذلك والجميع، تستطيع فعلها تستطيع تحرير الجميع ..

حمزة: لكني كنت عاجزًا، وقفت مكتوف اليدين، لقد خذلته لقد خذلتكم جميعًا.

مؤمن: لا لم تفعل لقد كنت دوما قدوة للجميع، وما كان مهند لينقذك لو لم يعلم أنك أهل لذلك.

اكتفى حمزة بتحريك نظره بين العيون التي تحيط به وتنتظره وكأنه بصيص الأمل القادم ليقول بصوت متعب: مستحيل!

مؤمن: اسمعني يا حمزة، كنت في يوم شخص احتله الإكتئاب فاستولى عليه ،كنت أتحدث أنه ومن المستحيل أن ينجلي هذا الظلم الذي يفتك بنا ،وعندما أبديت عن هذه الفكرة أمام مهند صفعني صفعة لا زالت تؤلم إلى الان، وقال لي: إن المستحيل أكبر كذبة نصدقها...

حمزة بدهشة:كيف ذلك؟

مؤمن: في خضّم مواجهاتك التي تخوضها في حياتك، من صعوبات، من تحديات، من متاعب تُلقى على عاتقك، من حُزم ياس، وبصيص أمل، تظل تتقلب بينهما، حتى تستقر على حياة واحدة أخيرًا، وتواسي نفسك بأن السبب كان المستحيل، الذي لا يتحقق ،ولن يتحقق، فهل فكرنا يوما أن مستحيلنا لا وجود له؟

لننظر لأنفسنا، أمن المُعقل أن المستحيل في تغير مستمر؟ فكما نقول إن المستحيل يتدفق وراء خيباتنا، ويقف أمام أحلامنا، فسيكون هذا المستحيل قانونا طبيعيا، وإن كان كذلك، فمن المفترض أن يكون ثابت؟!

لكنه بخلاف ما نقول، فهو يختلف من شخص لأخر...

حمزة: كيف ذلك؟

إن لك قوة لا حدود لها، ولتستطيع تحريرها ستحتاج الكثير من الجهد الشاق والكثير من العمل ورغبة جامحة في النجاح .

وقبل هذا كله إيمان قوي بالله وبنفسك وقدراتك.

هناك مقولة تقول: (لا تقل عن شيء مستحيل لعجزك عنه انت.).ولأثبت لك أيضا تأمل قوله تعالى وهو الحق: (والله على كل شيء قدير)

المستحيل الذي لطالما آمنا به ،ولطالما صدقناه وكان الحَكم في حياتنا ،فرسمنا به حدود الطموحات، وجردّنا الأحلام من حقها في أن تكون واقع ،هو ترهات تنسجها أدمغتنا ،فعندما تؤمن بأنك لا تستطيع فأنت لن تستطيع في حياتك.

إليك مثال..

محمد صلى الله عليه وسلم، رسول الله وقدوتنا جميعًا، أما كان أُمّي لا يقرأ ولا يكتب ؟!

لكنه في الواقع قد قاد الأمة ،وسيّر الجيوش ،وبلغ الرسالة التي وكّل بتبليغها العلماء الذين ندرّسهم في الكتب من توماس أديسون واينشتاين وغيرهم قد نالوا النجاح بعد الكثير من الفشل، في النهاية

الفشل ليس عيبًا وإنما هو دروس نتلاقها لنحسن النظر لخطوتنا القادمة ..

سئل نابليون يوما: كيف استطعت أن تولد الثقة في نفوس أفراد جيشك؟ فأجاب: كنت أرد ثلاث على ثلاث.. من قال لا أقدر قلت له حاول، ومن قال لا أعرف قلت له تعلم، ومن قال مستحيل قلت له جرب.

عليك بالمحاولة مرارا وتكرارا، فكلما وضعت يدك في صندوق أحلامك تأمُلُ أن تكون الكرة الحمراء نصيبك ،تفائل ،ولاتبتئس من الخسارة، وأعد المحاولة ،فستراها في يدك أخيرا ولو كانت آخر كرة في الصندوق..

ولا تصغي لصوتٍ دفين يريد إحباطك وتثبيطك، وإنما كن لهيبا يتغذى من لظى الحياة ، فلا اخفيك من الحقيقة ان العالم ليس كما تعتقد، وان الحياه التي تسودها الراحه هي: في جنات الخلد بإذن الله، وأنك ستزول اخيرا، لكن أن تزول دون أن تترك أثرا وكأنك كنت عبء على الارض فهذه هي الخيبة التي ستندم عليها، لذلك، بإيمانك القوي عليك أن تقف ببسالة لتحارب كل ما يحيط بك من ضغط نفسي ،وإرهاق بدني، وأن تضع المستحيل جانبًا، للذين يفضلون الموت

والذهاب بأيدي خاوية ،ثق بقدراتك فان لم تثق أنت بنفسك، فمن ذا الذي سيثق بك؟

لا أريد أن أكون مأساويا لكن لا أحد، لأن الجميع يحبون مصاحبة الناجحين ورؤيتهم، وسماع قصصهم، وتقليدهم ،فكن قدوة ،لتكون فخورا بنفسك في نهاية المطاف.

قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- :
كونوا دعاة إلى الله وأنتم صامتون قيل
وكيف ذلك؟ قال :بأخلاقك:

(6)

حمزة: هل لكم أن تتركوني وحيدا قليلا؟ رد

مؤمن: لك ذلك!

لم تكن رحمة على استعداد أن تخطوا خطوة واحدة خارج الغرفة ولم تكن راضية بما قاله مؤمن، فحمزة مشتت الفكر وتركه هكذا قد يصيبه بنوبة اكتئاب حادة لا خلاص منها، لكن ما باليد حيلة، خرجت مع الجميع..

حمزة..

ما العمل؟

كلما باشرت الدنيا بأن تفتح أبوابها المؤصدة، إكفهرت السماء وأمطرت بزوابعها فأغلقتها وأحكمت الإغلاق، ما الحل الذي سيخلصني من هذا كله، الأمور شائكة منذ بدايتها ،لكني لا أزال حيًا، رغم كل ما تعرضت إليه وكل ما خضته من مواقف كادت تُدلي بحياتي، لا أزال أتنفس ،إذا لا يزال لي مهمة علي إنجازها، وقد أوكلت إلي مهمة لم تكن بالحسبان قط، بلحظة واحدة!

أصبحت الزعيم هنا، وسينصاع الجميع لأوامري ،تصرفاتي إزاء المواقف سيتحمل عاقبتها الجميع ،أصبحت مسؤولا عنهم جميعا، وأنا الذي كنت أتهرب من مسؤولياتي عندما كانت تقتصر على كلمة "لقد كبرت "التي كان يتحدث بها أبي ،على أي حال الشخص الذي يستحق اعتذاري هو أبي ،علي الإسراع للعودة إليه، لكن ما العمل؟!

نهض وبدأ يتحرك في الغرفة ذهابا وإيابا، يدور حول نفسه في حلقة مفرغة من الأفكار اللامتناهية، حتى نظر من النافذة ،كان منزل العم فاضل كبيرا فهو تاجر معروف، والغرفة التي أجلس فيها في الطابق الثاني. تذكرت رحمة الفتاة المسكينة التي قُتل أخاها أمام ناظريها وظلت من بعده وحيدة، تذكرت كيف هبت كنسمة مبشرة بالمطر في موسم الجفاف وسارعت لأمانه، لو أرادات أن تحسبها بالمنطق فما كانت لتتحرك خطوة واحدة لداخل المنزل، حقا المنطق لا يستطيع تفسير كل شيء أو حل كل شيء ،لابد للخيال من تحريكنا في أرض الواقع، إنه يلامس العقول فيخفي منطقها عندما تزدحم المشاعر في القلب فإنها هي من تسيطر . وهذا تفسير منطقي لقوة الام عندما يعرض صغيرها للخطر ،رأى كومة من النمل يجتمعون حول قطعة خبز مُلقاة على الارض ،رأيت العصفور كيف خَطف تلك القطعة

وكيف حرم مجموعة من الطعام لكي يأكل، لكن كيف لنا أن نسترد حق النمل من ذاك العصفور الشره..

أحيانا تأتي الأفكار كعاصفة فتنفض أركان عقلك نفضا ،وأحيانا تأتي كمرض، فتجعل منك طريح الفراش، وأحيانا أخرى تأتي كوهج من أمل يبث في نفسك الحياة بعد أن ماتت رغبتك بها...

ها هو حمزة يقف أمامهم جميعا ويقول بصرامة:

أين مؤمن؟

ظهر مؤمن من غرفة مقابلة وقال:

أطلبتني؟!

حمزة:نعم سنتحرك بسرعة...لكن في البداية علينا إحكام خطة.

ضحكت الوجوه ،وأشرقت الشمس في نفوسهم بعد غياب طويل ،فقدوا قائدهم منذ قليل، والان يحصلون على قائد آخر في وقت قياسي!

حمزة: يا عم فاضل أخبرني من أين حصلت على المسدس؟

فاضل: أي مسدس؟!

حمزة: هذا...

ومن خلف ظهره قد خرج ذاك السلاح الصغير..

فاضل :لا أعلم أعطاه لي أحدهم واشتريته بثمن بخس..قال إنه مفيد في الحرب فأحضرته لعل مهند يعرفه.

حمزة :هذا يسمى مسدس ..بدأ كل شيء في الصين، حيث تم إنتاج البارود لأول مرة في العالم. في القرن التاسع، حيث خلط الكيميائيون الفحم والملح والكبريت إلى مسحوق يسمى huo yao، والذي كان يستخدم لعلاج التهابات الجلد .

مؤمن: وما الصين؟!

حمزة :احدى دول العالم بمسمياته الحديثة، إذا أنتم لا تعرفونها؟

إسلام:لا!

حمزة:

على العموم إنها مسميات ولن يهمنا تغيرها وتعددها استمعوا ..عندما علمت الجيوش بشأن هذا المسحوق الذي يمكن استخدامه في القنابل و الألغام وغيرها من الأسلحة. تم نقل البارود إلى أوروبا في القرن الثالث عشر، على الأرجح عبر الطريق التجاري المسمى بـ"طريق الحرير" عبر آسيا الوسطى. وقد قامت الدول المتحاربة بتحسين وصفات البارود في القرون ،التي تلت ذلك قبل الوصول إلى الخليط

الأمثل: حوالي 75% من الملح، و15% من الفحم، و10% من الكبريت.هذا ما اعتقده!

اسلام:تبدوا خبيرا بالأسلحة؟

حمزة بابتسامة: قد تستطيع أن تقول إنها إحدى هواياتي .

يا عم فاضل هل السوق الذي اشتريت منه هذا بعيد من هنا؟

فاضل: احتاج قُرابة يوم كامل للذهاب والعودة

حمزة: ألا يوجد حل لتقليل المدة، كاستخدام الأحصنة مثلا؟

سكت فاضل وبدا يفكر ثم قال: هناك عربات قديمة قد أتلفها الزعيم، عندما منع الخروج ،عثرت على إحداها وكانت صالحة فخبأتها في إحدى الكهوف. إن استعملتها قد أصل عند غروب الشمس.

حمزة بفرح: رائع!

فاضل: لكن هناك مشكلة فمن الممنوع أن نستخدم نحن العامة من التجار العربات، من يستخدمونها هم فقط الحرس.

حمزه: أتعلم يا إسلام كيف يُنقل الطعام للمساجين؟

اسلام: كنت أراقب سجن الجبابرة والمخلب ،إنه من النادر أن يطعموهم ولكن في سجن الجبابرة تصل عربة الطعام كل يوم ثلاثاء أما المخلب ففي اليوم الذي يليه...

حمزة بابتسامه منتصر وبنبرة جاءت وكأنه أستاذ يطرح سؤالا على تلاميذه: وما هو اليوم؟

أجابت رحمة بحماس: الأثنين!

حمزة: إذا غدا سيكون الموعد علينا تحضير كل شيء..

إسلام: لكن ليس من السهل التغلب على الزعيم!

حمزة: قل له يا مؤمن ما المستحيل؟

مؤمن: لا وجود له!

حمزة: إذا تسلحوا باليقين وسينصرنا الله.

أمانة: كيف سنبدأ؟

حمزة:ستبدئين أنتِ يا أمانة؟

أمانة : أنا..كيف ؟

حمزة: ستتسللين ليلًا لتخبري أصدقاء والدك ومعارفك والاخلاق التي هناك بأننا سنعلن حربا عما قريب، سيذهب معك مؤمن، وأعتمد عليكما في إقناع الجميع.

مؤمن وأمانة :حسنا!

حمزة: أما إسلام فستخبرني الآن بكل المداخل التي تقود للسجون وستساعدنا رحمة في معرفه الطرق الفرعية في الجبل.

-وبابتسامة-..والأبار التي تقود لكهوف.

ضحكت رحمة وقالت: حاضرة.

حمزة: عم فاضل، سنقوم مع طلوع الفجر بمساعدتك في نقل العربة

فاضل مقاطعا:

استطيع دفع أجر لعمال أثق بهم من الاخلاق سيقومون بالمهمة لضمان وفرة الوقت، وسأحرص بنفسي على المراقبة.

حمزة:لا مشكله بذلك، وأنا سأدبر لك منقذا من التفتيش الذي يحدث وستستطيع الخروج بإذن الله.

فاضل: بإذن الله.

حمزه: لدي سؤال أيها العم أسمعت برماح الحرائق ...؟!

فاضل: صفها لي يا بني لعلي أعرفها؟!

حمزة: إنها تتمثل في شكل أنابيب من الخيزران أو المعدن التي تقذف اللهب و الشظايا باتجاه أهدافها.

فاضل: سمعت يا بني أن هناك حربًا قد اندلعت بين قبيلتين من أقوى القبائل القريبة في الشمال، أذكر أن صديقي الذي يسكن هناك قال بأن هناك أعواد خيزران تنفث النار، يومها ظننته مجنونا..

حمزة: إنها حقيقة، اذا هي موجودة، عم فاضل ستسعى أن تجد لنا الأسلحة كهذه والمسدسات والبارود الذي تحدثت عنه .. وأما نحن فسنسعى أثناء تجوالنا في تنفيذ المهمات بالبحث عن مكونات البارود.

رحمه: أسنصنعه؟

حمزه: أجل يا رحمة.

مؤمن: وهل سينفجر ؟

حمزه: سنبذل جهدنا ليحدث ذلك لكن علينا أن نكون حذرين.

فاضل: أخبرنا كيف إذا ؟

حمزة: في البداية علينا إيجاد مكوناته وجلب بعض الملح الصخري. الملح الصخري هو الاسم الشائع لنترات البوتاسيوم، وقد كان يتم تصنيع الملح الصخري في الفترة التي انتشر استخدام البارود فيها من ذرق الطيور أو بول الأحصنة وغيرها من ترب الزبل. ولإحضاره لدينا طريقتنا الاولى: أن يعثر لنا العم فاضل على شخص يبيعه ،ويصنعه ،لأن إعداده يحتاج لعشر شهور ولن نستطيع فعلها فنحن نريده فورا والثانية :هي أن نحصل على إحدى الكمامات التي تخفف الام العضلات قد توكل إليك هذه المهم يا عم فاضل فانت من تقدر عليها..

فاضل :سأكون عند حسن ظنك بإذن الله.

حمزة : أثق بك ...الان لننتقل للمكون الاخر الفحم سنحصل عليه إن ملئنا برميل معدني بقطع من خشب الصفصاف أو غيره من الأخشاب، ثم نضع البرميل في مشعل بغطاء مفتوح قليلًا من الأعلى وندع باقي المهمة للهيب الذي سيعمل بفعل سخونته الشديدة لمدة 4-6ساعات على تفحم الخشب وسنحصل على الفحم .

امانه : كيف يكون شكل الفحم هذا؟

حمزه :أسود اللون داكن ،وهو أشبه بالصخر.

أمانه: لقد أخبرني أبي أنه أحضر لنا شيئا يستطع أن يوقد النار بسهولة وبشرارة واحدة ،كان شيئا كالذي وصفته الان.

حمزة :أين سنجده ؟

امانه: إنه في بيتنا -اكملت والحزن قد اكتسى ملامحها -لا أظن أني امتلك قوه لدخوله مجددا.

حمزة:بل ستفعلين، لأجل احبائك الذي قتلوا بسبب الظلم ،لأجل نفسك ولتنالي الحرية، ولأجل الجميع هنا.

أمانة: حسنا سأفعل!

مؤمن: اذا سنعمل على إيجاده ونحن عائدون.
حركت أمانة رأسها أي نعم والتزمت الصمت فأكمل حمزة: نحتاج للكبريت النقي ولن نجده إلا في مناجم ؟

فاضل: كبريت !إني أمتلكه ،أنه يستخدم لتحميض التربة.

حمزة بفرح: هو بعينه..نحتاج لهذه المكونات فقط علينا أن نبذل أقصى جهدنا لتوفير أكبر قدر منها.

الجميع: حاضرون!

حمزة: سأترككم الان لتنالوا قسط من الراحة وتخلدوا للنوم التحرك سيكون ابتداءً من صباح الغد...

إسلام: وقت النوم اخيرا...

ذهب الجميع للنوم أمانه ورحمة في غرفة واحدة ومؤمن وإسلام في غرفة والعم فاضل في غرفه وحمزة فضّل أن يبقى في غرفة الجلوس التي كان فيها وقال أنه سينام هناك...

حمزة...

بعد التفكير في الأمر، علينا أن ننجح، هذا الحل الوحيد إن استطعت صنع البارود كما كنت أفعل في بيتي لكي أصنع الألعاب النارية فقد أنجح بالفعل، لا وقت للنوم...

نهض حمزة وغادر المنزل يجوب الشوارع ويمضي في الأزقة وصل للسوق الكبير، ظل يمضي بين الناس ، حتى تذكر مهمته ،وسرعان ما حرك رأسه لينسى الأمر هو لا يريد الإنشغال عن المهمة التي عليه إنجازها الان، إن أنجزها سيتفرغ لنفسه وإن لم يستطع فسيحرص على أن تكون ميتته كميتة الابطال، لن يكون طمّاعا وأنانيا فالجميع يحتاج المساعدة وعليه أن يؤثرهم على نفسه..

لحظة! هذا بيت العجوز الطيب الذي يبيع الورد، سألقي التحية...

طرقت الباب مرة ولم يأتي الرد فكررت الثانية كذلك لا رد والثالثة لا رد، خشيت أن ألفت النظر بفعلتي فقلت الأستاذان ثلاث وسأعود إلى هنا من جديد فها قد علمت أنه لم يتبخر..

استمر بالمضي في الأزقة ،رأى زقاق نقش عليه اسم رحمه ،دخل فيه، ووصل أخيرا إلى طريق مسدودة، ما قصة هذا الزقاق الغريب ؟

في الحياة إن لم تتعلم من الضربة الأولى فأنت تستحق الثانية!

نجيب محفوظ

(7)

حمزة...

زقاق عليه اسم رحمة وجدران قديمة مهترئة والنهاية تكون شجرة صنوبر ضخمة وحجر عملاق ونقش ؟! نظرت للنقش أردت أن أحفظه لعل له صلة برحمة.

أخذت ألتفّ حول الشجرة فرأيت جذورها، كانت تمتد في الأرض لكنها واضحة بعض الشيء للناظرين، دققت النظر فوجدت صورة سهم يشير إلى الأسفل قد نُقش على الجذع من الخلف، فمددت يدي بين الجذور وبالفعل وجدت ورقة فتحتها وقرأت:

" أختي الغالية...

كنت أعلم أنك ستأتين لزيارة هذا المكان لإستعادة الذكريات، أتذكرينه يا رحمة ؟

ما يؤسفني أنني لست معك الآن لأكون بقربك، أتمنى أن تكوني بخير ،كتبت هذه الحروف لأطلعك على سر أخفيته عنك ،أتعلمين

الاسطورة يا رحمة تلك التي تتحدث عن انجلاء الظلم، في الواقع إنها حقيقة تماما، فالله سبحانه قد وعدنا بالنصر وإن الغلبة ستكون للمؤمنين دوما، لقد كان أبي يعد العُدة لمساعدة ذاك الفارس الذي سيأتي إلى هنا ويهرع إلى إنقاذنا ،فكان يحرص على تخبئه الأسلحة وحفر الأخاديد والشقوق ،وأنا أكملت المسيرة من بعده، عليك زيارة المكان يا رحمة ستجدين هناك رسالة أخرى لك في شيء تحبينه هناك، الموقع هو مكان تلتقين به مع الشمس ...حافظي على نفسك ...أحبك...نبض"

إنه نبض ينقذ رحمة دوما، قالت أن أخاها يأتي لمساعدتها دوما، عندما تشعر أن السبل قد تقطعت بها، واليوم هو يساعدهم جميعا ،وضع الرسالة في جيبه وقرر العودة، في أثناء تجوله، مر بسجن المخلب السجن الذي كان فيه من قبل، كانت الحراسة مشددة ويبدوا أن السجن في حالة من الفوضى العارمة ،الحرس يتخبطون ببعضهم البعض، وقفت في مكان حرصت أن أبتعد عن العيون لكن في الوقت ذاته تكون عيوني عليهم، رأيت الزعيم ينزل من عربة قد وصلت توًا، كان الغضب يشتعل من عينيه، حتى أنه ضرب إحدى الحرس فطرحه أرضا ،هناك شخص قد وضع يده على كتفي، يا الهي قد امسكوا بي

،التففت فإذ بشخص يسحبني من يدي ويبعدني عن المكان ،لقد كانت صدمة كُبرى، إنه يشبهني، بطولي بعمري بوجهي بملامحي وكأنه أنا!!

كيف ذلك؟!

قلت له: من أنت؟

قال: من أنت؟

قلت :تشبهني كثيرا!

رد :أنت الذي تشبهني ماذا كنت تفعل هناك؟

حمزة : أيكون السجن دائما في حالة الفوضى هذه؟

قال: لا لقد هربت ،أنا سجين.

حمزة بصدمة: هربت؟ ! كيف؟

قال: من أنت؟

حمزة : لم أُعرفك نفسي المعذرة اسمي حمزة وأنت ما اسمك؟

قال:

أنت حمزة !الهارب من السجن..

حمزة وهو يضع يده على رأسه فيتحسس شعره: يبدوا أني أصبحت مشهورا جدا.

قال: أجل يا صديق، لنذهب من هنا فالمكان خطر.

حمزة: هيا لدي مكان آمن تعال..

قال: حمزة لم أخبرك باسمي أنا يوسف..

حمزة وهو يستذكر أين سمع هذا الاسم: أهلا بك يا يوسف، أنت من العامة؟

يوسف: نعم، أنا كذلك لكني أرفض هذا الظلم وددت لو انقض على ذاك الوغد وأقطعه إربا إربا..

حمزة: تبدوا قويا؟!

يوسف: لقد كنت صبي مدلل في ما مضى لكن اختلف الوضع بعد خسارتي تجارتي وقررت خوض التجربة خارج البلاد وهناك تعرفت على تاجر كبير، وساعدني في استعاده ذلك، ولم يكتفِ بها وحسب وأنما علمني ركوب الخيل وخضعت لتدريبات شاقة، وها أنا..

حمزة: ولماذا سُجنت ما دمت لست خُلقا؟

يوسف: لقد ارتكب خطأ فادحًا، وأنا آسف عليه فعلا ،وعلي تكفيره، لكن المشكلة أنني لم أستطع..

حمزة : ماذا فعلت؟

يوسف :أبي ،أنه يحبني وبشدة لكني نكرت معروفه وفضله وتركته وحيدا وذهبت ...وعندما ارتدت الاعتذار بدى ذلك علي فحبست بتهمة أنني أصبحت خلوقا، حمزه: تذكرتك ...أنت يوسف!

يوسف: ما بك قلت لك هذا من قبل؟

حمزة: لا أقصد أني أعلم أين أباك لقد قابلته تعال معي أعلم أين منزله...

يوسف:انتظر سيكون من الخطر الذهاب الان سأعرض والدي للخطر فأنا ملاحق...

حمزة: صحيح...إذا هيا معي، اتبعني...

ذهب حمزة وقد وجد رفيق لمرافقته في طريق العودة والحديث يجتر الاخر..

يوسف: لقد نجوت بفضل شاب قد أحدث جلبة كبيرة في السجن، كان ماهرا في القتال، لقد علمت أن الزعيم اختفى، ومن ثم تحرك هذا الشاب فقضى على الحرس وكنت قد أمسك بي توًا فعاونته فأنا أجيد المبارزة بالسيف ،ونجونا...

حمزة: وأين ذهب الشاب ؟

يوسف: لم يخبرنِ أين ذهب، لكن يبدوا أنه على عجل.

حمزة: أهو إحدى الاخلاق؟

يوسف: أظن هذا فالنور يشع من وجهه

حمزة بفرح : إذا قد نجا مهند هذا رائع

يوسف: أتعرفه؟

حمزة: صديقي العزيز

دخل حمزة لمنزل العم فاضل وألقى السلام كان الجميع في انتظاره فالفجر قد شارف على البزوغ، أخبرهم بما حدث وقصّ يوسف عليهم قصته، وتحدثوا عن فرار مهند ،ولماذا لم يأتِ إلى هنا وهو يعلم هذا المكان جيدا، ثم نهضوا للصلاة واصطفوا وأمّهم مؤمن، الذي كان صوته حسنا يبعث في النفس الطمأنينة قرأ من قوله تعالى: (إنما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون *والذين هاجروا في الله من بعد ما ظُلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنه ولأجر الأخرة اكبر لو كانوا يعلمون *الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون)أبكته الآيات وبكى معه الجميع، كانوا بحاجه لمواساة تطمئنهم، وها هي قد أتت وممن؟ من الذي إن قال لشيء كن سيكون..

انتهت صلاتهم فباشروا في خطتهم المتفق عليها، انطلق كل لمهمته ،لكنه تذكر أمرا هاما: رحمه!

حمزة: رحمة هل لك أن تأتي قليلا!

رحمة: حاضرة.

حمزة: خذي هذه

رحمة: ما هذه ؟

حمزة: اقرأيها

أخذت رحمة تقرأ رسالة أخيها وتبتسم والدموع تتناثر من عينيها، أغلقت الورقة وقالت: أين وجدتها؟

حمزة بابتسامة :تِهت في الزقاق فوجدتها مُخبأة في جذر شجرة معمرة.

رحمة بضحكة:تهت مجددا؟

حمزة :أجل!

رحمة: شجرة ...إنها الشجرة التي كنا نحتمي خلفها في صغرنا، عندما كان الحرس يلاحقوننا ،هل لك أن تأتي معي؟

حمزة:سنأخذ معنا إسلام إن لم تمانعِ؟

رحمة: لا بأس، أسنباشر بالمهمة؟

حمزة: مهمتنا أصبحت البحث عن السر الذي أخفاه أخاك.

رحم بابتسامة: إذا هيا لنذهب..

حمزة: هيا إسلام...

كنت امشي في المنتصف حمزة عن يميني ورحمة عن اليسار ،كان الجو صامتا، فرحمة تنظر للأرض بعيون دامعة وحمزة شارد الذهن تماما، شعرت وكأني بين كوكبين ،كل كوكب يتعرض لكارثة مختلفة ،فقررت كسر الصمت لعلي أخفف عنهما ما هما فيه فقلت متى سنصل؟

رحمة: وصلنا ....

إسلام:أخيرا

حمزة يتقدم الان يقف أمام الشجرة ويشير للأسفل ويقول: هنا وجدتها يا رحمة.

اقتربت رحمة ونظرت للمكان، قد تحركت عواطفها ،وتذكرت صورة أخيها، ثم قالت: المكان الذي أقابل فيه الشمس؟

حمزة :أي مكان هذا؟

رحمة: لا أدري أي مكان زرت مع نبض الكثير من الأماكن المشمسة

حمزة:أرجوك يا رحمة عليك التفكير فالوقت ضدنا.

رحمه: لحظة ما هذا النقش؟

اقتربت فرأت رسم بدائي لفتاة تقف على حجر، نظرت للحجر الذي يلي الشجرة، واتجهت نحوه، حاولت تحريكه لكنها لم تستطع..

حمزة:أحم اذا سمحِتِ، سأقوم بتحريكه لك.

اسلام : هل هذا ممر سري؟

رحمه: لا أعلم!

الصخر ثقيل جدا ولكن تغلبت رغبة حمزة الجامحة في النجاح على ثقله ،حركه فلم يجد شيئا.

اسلام:يال خيبه الأمل!

رحمه: لا تستعجل أنظر لهذا.

كانت خريطة قد نقشت على الصخر من الأسفل، ليست واضحة تماما لكن رحمة قالت: عرفت المكان لنذهب!

وأخذت تركض بفرح، تبعها حمزة وإسلام، وضحك حمزة عندما تذكر أنه لا يجاريها في سرعتها، وإنها كانت تهرب منه بسرعة فائقة، دخلت في شق بين الصخور، ووقفت في نهايته المغلقة اخيرا...

اسلام: أنا لا أرى شمسًا هنا؟

رحمه تلتفت اخيرا بفرح وتقول: الان استطيع أن أقول لكما أن هذا مكان سري...

حمزه : لكن يا رحمة، أين السر؟

رحمه : هذا، أنتما حقا لا تنظرنا إلى ما أنظر ،هل لك أن تقترب يا حمزة؟

حمزة:لا بأس !

اقترب حمزة من موقع رحمة وبالفعل عندما وقف بجوارها استطاع أن يرى ما تراه أنه شق في الصخور يقود إلى مكتبة ،عالم مزدحم بالكتب ،أجاد نبض إخفاء كتبه حتى ،وثب حمزة ودلف للداخل بعد أن ساعد رحمة وإسلام على الدخول..

اسلام: يال كم الكتب الهائل! !

رحمة :أخي يحب القراءة...حمزة هذا ليس المكان المطلوب علينا الصعود لأعلى..

حمزة: لنصعد اذا ، علينا الحذر فالوقت ليس في صالحنا. .

رحمة تلفتت بعيون دامعة وتقول :هذا هو المكان يا حمزة ،انظر إلى هذه الصناديق الضخمة الغريبة!

اسلام : يال له من مكان!

حمزه:اسلام فتش عن كتب فيها معلومات قد تفيدنا.

اسلام:سأفعل

حمزه:رحمه ..ابحثِ عن رسالة نبض ،ألم يقل انها في مكان تحبينه؟

رحمه :سأفعل يا حمزة ..لكني لا استطيع أن أتحرك شبرا واحدا هنا أشعر أني سأبكي.

حمزه: لو كان نبض هنا لغصب بسببك.

رحمه بدهشة:ماذا؟!

حمزه: انه يسعى لبقائك زهرة متفتحة ،تبعث عبيرها في كل نفس تمر بجوارها، وأنتِ تخالفين رغبته ببكائك هذا.

رحمه : ليس من السهل أن تفقد شخص تحبه يا حمزة شخص قد أمضيت عمرك معه ،وكان دوما ما يضيئ دربك، إنه لأمر صعب صدقني.

حمزه: أعلم هذا -وبسخرية- أنت تعلمين ايضا أني وحيد، وفقدت اهلي ومعارفي وعالمي دُفعة واحدة ،اتركِ مشاعركِ جانبا وباشري بتنفيذ مهمتك ،ابحثِ عن رسالة نبض الان ،ليس لاجلك ،وانما قد يكون فيها معلومات مهمه.

غادر وتركها وحيدة ، لم تعتد أن يكون حمزة هكذا ماذا حدث له ؟! ذهب ليفتش في الصناديق وبالفعل وجد أسلحه مختلفة...

حمزه : يبدوا أننا لن نحتاج لتصنيع البارود!

اسلام:لقد قسوت عليها يا صاحبي..

لم يجبه حمزة فهو يدرك أن للفقد فاجعة ،لقد مر بهذا الشعور مرارًا ،ويدرك جيدا عمق الصدع الذي يتركه في نفس صاحبه ، لكنه يدرك أيضا إن هذا الوقت لا يوجد فيه متسع للسماحِ لمشاعرنا بالعبث فينا ،فعندما تتجرع من كأس الضياع كثيرا ،ستبدأ بتميز المهمات والعمل عليها بدقه أكبر ومهارة اعلى..صمت حمزه حتى أدرك اسلام انه لا يريد من أحد ان يتدخل فيما حدث فهو يعلم ما يفعله جيدا..

اسلام:اين البارود؟ إني في شوق لأراه!

حمزه بهدوء :ها هو

اسلام: أهذا سينفجر حقا ؟

حمزه: أجل ،انظر الى تلك البراميل هناك إنها تحتوي في داخلها كمية من البارود وعندما تقوم بإشعال الحبل الذي يخرج منها وتصل الشعلة للداخل سيشتعل المكان بانفجار البارود.

اسلام : كيف سننقله إلى حيث منزل العم فاضل ؟

حمزة: لقد قام نبض بحفر شقوق أسفل المكان تقود لكل

جزء في المدينة ،انظر لذاك البهو هناك.

اسلام:وماهي الاوامر الان؟

حمزه:

استمع لي جيدا في البداية استدعي الجميع إلى هنا، أنا متأكد أنهم يجتمعون في بيت العم فاضل.

اسلام:احتاج الكثير من الوقت للوصول إلى هناك.

حمزة: أخبرهم أن يتبعوك فقط

ثم أردف قائلا:

أنظر لهذا الكتاب أنه مخطط لأرقام الطرق المخفية ومخارجها وأين ستقودك، ستسهل علينا المهمة، وهناك طريق يقود لحيث بيت العم فاضل، ولتندهش أكثر من هذا مخرجه في بيت العم فاضل، هذا يدل على علاقة كانت تجمعه بنبض.

اسلام: إذا سأذهب في الحال.

ابتسم حمزة وقال: سأنتظركم جميعا لنشل اول هجوم.
غادر إسلام المكان بحماس كبير وبالفعل سلك الطريق الذي أخبره به حمزة فوصل لنهايته وإذ به يفاجأ بباب، يدخله على بيت السيد فاضل ،لم تكن المفاجأة له فقط وإنما للجميع ،ابتسم العم فاضل عندما رأه يخرج وقال إن هذا الباب سر بينه وبين نبض الشاب الطيّب، لم يكن يعلم أن نبض شقيق رحمة...

جال حمزة بناظريه فرأها تمسك ورقة وتبتسم ، فابتسم هو ،لقد وجدت رسالة أخيها، وهي الان تبكي، تبكي بمرارة قد أحرقت فؤادي، فضّلت تركها وحيدة الان ،والجلوس في مكان أخر لعلها ترتاح من عناء حمل الدموع الثقال على صدرها..

حمزة..

أمسكت بكتاب ،كان ملقى على المكتب ،علمت أنه آخر ما قرأ نبض كان عنوانه" محاكاة عالم الأخلاق، هنا كانت بدايتنا" فتحت الكتاب وقرأت:

"منذ الثانية الأولى التي ولد فيها هذا العالم تعهّد الشيطان لنا بان يجعل طريقنا حافلا بالمتاعب، بالأعتراضات، بالتوهمات بأن يستمر بالوسوسة في صدور الناس «قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين » ،ولد الزمن من عقارب الساعة ،التي لفظها بعيدا، ويتحمل عناء مهمته الشاقة ،كان يراقب الأحداث ،ويرى كيف بُشّر شخص بفتاة فعاد لمنزلهم مسرعا وكأن هناك اعصار قادم يريد تحذير أهله منه ،تبعه الزمن ، وراه يمسك بامرأته في غضب ويلقيها أرضا ،ويقول:

ما قدمت لي خيرا قط ،والان تخزيني بفتاة، تساءل عن هذا الكُره المطبق ، ودهش من أن الأب قد حمل ابنته وجرى بها حتى وصل

الصحراء حفر حفرة وألقاها هناك ، وقال :على العار أن يموت قبل أن يلقي بنا للخزي ؟!

أهكذا ينظرون لمخلوقات الله ،لأرّق من على هذه الارض ؟!

هرب الزمان وسلك الصحراء مبتعدا عن تلك الكارثة، وعن ذاك الوحش ،لا زال يسمع صراخ الفتاة وهي تبكي لا زال صدى صوتها يرن في أذنيه، حتى ظهر نور غريب من الجبل، قال: لعله شهاب!

وصل القرية مع صباح اليوم التالي ،وقرر العيش هناك ما أدهشه أن أخلاق الناس كانت في تحسن مستمر ،ترى ماذا يغيرهم؟

ما السر الذي يخفونه؟

ابتسم حمزة وقلب الصفحة إلى التي تليها فوجدها ممزقة فذهب للأخرى وقرأ:(إنه يبكي مع الجموع !أيعقل أحقا مات رسول الله!

هذه شائعة لاشك أن الناس يتداولونها كما يفعلون دائما ،إنها كذلك فمن المستحيل أن يموت...

﴿وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين﴾-ال عمران/ 144- كانت صاعقة أمطرت بأعاصيرها على القلوب والعقول ، لقد ارتقى الدين وعاد مجد الأمة، لقد انتصرت أمة

الإسلام وحاربت ما واجهها من ظلم واستبداد وطغيان ،وانتشر الإسلام وو..... مات محمد صلى الله عليه وسلم ،وها هي العيون تذرف دما لشدة حزنها والقلوب تبكي رثاءً لمحبوبها والحياة أصبحت مشتتة مليئة بالضجيج، المؤمنون يعودون لصلاتهم ليستعيدوا سكينتهم التي ودعوها قبل لحظات، إيمانهم كان أقوى من موقف أقوى من فقدان ،أنه يسكن القلب فينغرس فيه ، إنه عمادهم الذي يستندون عليه بعلوه وغنّاه، وكان من رأى ابن الخطاب علِمَ أنه خلق عونا للإسلام، كان والله أحوذًيًا، نسيجًا وحده، قد أعاد للأمُورِ أتزانها «

لم يتوانى ابو بكر الصديق -رضي الله عنه -عن قتال المرتدين عن الدين ومانعي الزكاة بل غضب أشد غضب وأرسل جيوشا ضخمة ليخبر الجميع أن الغلبة للدين مهما كثرت طوائف المعاندين.

نظر الزمان للحروب التي وقعت والمعارك التي حدثت وكيف أن جيش المسلمين كان يمضي بلا اكتراث لما قد يواجه فإنهم سينالون إحدى الحُسنين، نصر من عند الله ، أو الشهادة في سبيل الله..

همس الزمان لنفسه محدثا: أخلاق الثابتين لازالت قائمة ،ما زرعه فيهم رسولهم الكريم -صلى الله عليه وسلم -لا يزال حيا في عروقهم،

تضخه افئدتهم، يحيي عقولهم ،وينير الله قلوبهم، فتظهر تلك الاخلاق على جوارحهم...) أين البقية ؟صفحات ممزقه

شرد ذهنه... إذا بداية الأخلاق كانت منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ،وبدأت بالانحدار التدريجي حتى تشكل هذا المكان..

نظرت لمصدر الضوء وتحركت نحوه، فوجدت نفسي

أقف على جبل مرتفع يكشف القرية بأسرها، وقفت شارد الذهن، أفكر بصوت مرتفع قليلا:

طالما هناك مكان يقود لكل سجن هنا فلماذا لم يقتحم نبض المكان وينقذ الاسرى، لابد وأنه أدرك أن قوة واحدة لا تكفي ، ولو أنقذهم فسيعودون لمكانهم بعد الإمساك بهم، الساعة الان تقريبا الواحدة ظهرا ،بعد أن نجتمع سنبدأ بالتحرك، يارب ساعدنا يا الله، أعنا على رفع هذا الظلم الذي فتك بالكثيرين.

رحمة: امين ..

التفت لها حمزة وقال: أراكِ قد وجدت رسالة نبض!؟

رحمه: نعم ،وجدتها .

سكتت قليلا ثم قالت: حمزة! هناك أمر عليك أن تعلمه ،هناك رسالة لك.

حمزة بدهشة: لي؟!!

مدت إليه الورقة وقالت:

هذه لك أمسكها حمزة وجلس على الأرض فتح المغلف

وأمسك بالرسالة وقبل أن يقرأ، قال:

اتعلمين مافيها؟

رحمه: لا أخبرني أن أعطيك إياها فحسب.

حمزة :لا بأس

"أيها الفارس القادم، شكرا لك لنضالك ورغبتك في إنقاذنا ،كنت أتمنى أن أكون حيًا ،لأكون ذراعك اليمنى ،وأعاونك، لكن أسال الله لك التوفيق...

لاشك أنك علمت عن السجون الثلاث ،وأسطورة البوابة ولاشك أنك تعلم أن سجن الصخرة يعذب بطريقة سفاحة ولكن لا أحد يعلمها، تسللت يا صديقي لذاك السجن، رأيت كيف يقتل الناس هناك، إنهم يقومون بإشعال حجر أسود له القدرة على التجمّر، وكأن النار قد دّبت في ذاك الصخر ، ثم يلقون بهم عُراه على أسياخ من حديد تعلوا تلك الحجارة، ويقومون بضربهم حتى يسقطوا على تلك الأسياخ، تراهم بعد ذلك يتحركون كما الثعبان ذهابا وإيابا، ومن ثم يلقى عليه بدلو

كان قد وضع فوق رؤوسهم يحتوي على عدد كبير من تلك الحجارة المشتعلة فيموت وتلتهمه ألسنة اللهب. ويحرقون ما تبقى من عظامهم في أخدود مشتعل.

أعلم مدى الوحشية تلك ،وأدرك أنك حزين الان، لكن عليك تخليصهم أيها البطل، هناك ممر يقود لأسفل البوابة ،تستطيع تفجيره ،بمادة مشتعلة كنت أجمعها لك، هناك سهام أيضا تستطيع استخدامها، لم أستطع حفر طريق يقود للسجن من الداخل لكنك ستصل لأخدود النار، فاحرص على أن لا تصله في وقت حرق أحدهم ستشوى إذا فعلت ذلك، أيام الإعدام هناك تكون يومي الجمعة والسبت، كن حذرا...

هناك طلب أخير، أريدك أن تعلم حقيقة وجودك هنا، لا يأتي هنا سوى الذين كانوا سيئين فأرادوا تصحيح أخطائهم ،لاشك أنه تم استدعائك إلى هنا لأنك كنت في يوم شخص سيء، لا يهم ما كنت عليه، المهم ما هو أنت عليه الان، أريدك أن تدرك أن لهذا العالم ارتباط بعالمكم، فكل الاخلاق السيئة لديكم، تنتقل لعالمنا لتحارب الاخلاق الجيدة، قد تعتقد أننا عالمان، ولكننا عالم واحد، نحن نتواجد على أرض الواقع، ولكننا نكون في الاشخاص كأخلاق...

إن المؤامرات ضد الاخلاق غالبا ما تحاك هنا، من وراء جدر، فلا تصدق كل ما تراه عينيك يا عزيزي، فما تراه أمامك قد يكون متفق عليه من قبل....

لي طلب أخير، أختي رحمة، لا تعرضها للأذى أرجوك.

أتمنى لك التوفيق ...نبض"

ابتسم حمزة ونظر لرحمة التي ترقبه بعيون متلهفة لسماع ما سيقوله..

حمزة: إن لك أخًا رائعا..

رحمة: أعلم هذا

لم تُتح لرحمة فرصة لكي تسأل حمزة عما كُتب في رسالة نبض، فقد وصل الاصدقاء...

دخلت أمانة وانقضت على رحمة وهي تبتسم، مما دفع رحمة للابتسام، وابتسم حمزة عندما رأى أصدقاءه يدخلون وقال:

أنا حقا مسرور لأنكم هنا..

مؤمن :لقد وافق الجميع على المساعدة يا حمزة

حمزة:جيد...الان لنوزع المهمة الجديدة

تقدمت امانه وقالت: هذا الفحم يا حمزة.

حمزة: أحسنتِ عمل رائع.

العم فاضل: هناك خبر سيء لم استطع توفير تلك المادتين، ولن يتواجدا هنا إلا بعد يومين كحد أدنى..

حمزة:لا بأس، وجدت بارود.

مؤمن :حقا!!

حمزة: أجل ..الان لنبدأ توزيع الخطط...

عليكم توخي الحذر قبل كل شيء، مؤمن ستذهب لزرع ثلاث عبوات بارود أسفل البوابة، وتحفر ثقبا وترفع إحدى الحبال منه كن حذرا فليس على أحد أن يراك، ومن ثم ستخرج من مكان قريب ،لن تواجه أية مشكله فالعامة لا يصلون للبوابة إلا موعد حملة التجار وهي تقام في يوم واحد من أيام الاسبوع، والحرس أناس أشرار،

لكننا لن نعاملهم بالمثل، حذرهم أن ابتعدوا وإن لم يبتعدُ فلهم جزية عنادهم ،لكن تحذيرك لهم لن يكون إلا بعد إشعال النار ،أشعلها واهرب وقل لهم أن يهربوا. لكن قبل هذا ستكون إشارة إشعالك للنار عندما ترى غمامة دخان تخرج من ناحية سجن الصخرة أفهمت؟

مؤمن: أمرك.

حمزة:أذهب الان فلا وقت لدينا.

مؤمن : حاضر..

حمزة: إسلام أنت تحب التسلل وماهر في ذلك صحيح؟

إسلام: طبعا

حمزة : ستذهب من مخبأ آخر هذه المرة ستخرج بعد أن تثار الجلبة بين صفوف الحرس.

إسلام:في أي سجن؟

ابتسم حمزة وقال: لا يوجد مساجين في سجن المخلب الان بسبب هروب يوسف منه، إنهم يحرصون ترميم ذاك المكان ،لذلك ستذهب لسجن الجبابرة وتحرر صادق وحبيبه والمساجين هناك ..بعد أن يفجر سجن الصخرة.

إسلام :حاضر..

حمزة: ستأخذ معك سيفان، لك واحد واعطي سجين ماهرا في استعمال السيف واحدا.. -ابتسم إسلام وتابع حمزة- أما أنت يا عم فاضل فخذ هذه السهام لسكان التل القريب من سجن الصخرة، واللذين يسكنون سجن المخلب، وقل لهم أن يشعلوها قبل رميها وأن الإشارة ستكون رصاصة سأطلقها أنا.

العم فاضل: حسنا

حمزة: لحظة يا عم هناك ما سأخبرك به...

اقترب حمزة من العم فاصل وأخبره بشيء ما فابتسم وغادر المكان عبر الشقوق ،ابتسم حمزة، الفتاتان المتبقيتان وقال:

انتظرا هنا سأعود

رحمة:ألن توكل لي مهمة؟

حمزة:سأخبرك بها عندما أعود..هيا يا يوسف!

يوسف: هيا

حمل يوسف أربعة براميل وقود بأمر من حمزة، وقام حمزة بوضع البارود في كيس كبير وفعل هذا باخر وتقدم من الشقوق....

بعد فترة ليست بالطويلة عاد مع يوسف وقال: مهمتك يا رحمة أن تبقي هنا..

رحمة:لن أقبل بهذا علي أن أساعدكم.

حمزة: لكنك ستفعلين هذا ببقائك هنا.

رحمة: لا أريد .

قال حمزة:سنتناقش في الأمر عندما تعدين الشاي هيا قد ترك نبض هنا بعض منه.

نهضت رحمه وقالت:

لكن عليك أن تعلم أني لن أظل هنا.

ابتسم حمزة وتأكد من أنها ذهبت وقال:

أمانه! اعتني برحمه، ستكون مهمتك هي إبقائها هنا، لا تدعيها تغادر المكان ،ولا تغادريه أنتِ أيضا.

أمانه:لكن يا حمزة...

حمزة مقاطع: سنكون بخير

يوسف: كيف ستقنع رحمه بذلك؟

حمزة: سترى بعد قليل

أتت رحمه تحمل الشاي وضعته أمام حمزة.

وقالت: هذا الشاي ما مهمتي؟

قام حمزة بصبّ الشاي، وقدم لها كأسا وقال: لن أخبرك بشيء إذا لم تشربي هذه ،ما رأيك؟

نظرت له رحمه بنظرة شك وقالت: أأنت صادق؟

ضحك حمزة وقال: أنا حمزة ولست صادق، أشربيها أولا!

أطاعت الأمر وما إن انهت آخر شربة في الكأس حتى غطّت في نوم عميق.

يوسف :نامت؟

حمزة:هذه شربة مهدئة ،ستظل نائمة على الأقل ريثما تهدئ الجلبة ،لنتحرك الان !

نهض يوسف خلف حمزة وسلكا طريق مؤدية لسجن الصخرة الذي يشكل كابوس هذه المدينة ،ابتسم حمزة وقال ليوسف:أمستعد ؟

ضحك يوسف وقال :دعنا ننهي هذا الان.

تقدم حمزة وبدأ بصعود ذاك الاخدود، لم يكن هناك حراسة عليه، فهي لا تكون كذلك إلا عندما يكون هناك إعدام ،تقدما رويدا رويدا ،وسمعا أحدى الحرس يقول:

السجن لم يعد ممتع

رد عليه رفيق: لماذا؟

فأردف: إنه خال تماما من السجناء ،وهذا الأمر مؤسف!

أجاب زميله:

أوافقك الرأي لكنهم سيأتون غدا ،سنتسلى بهم!

ضحك وقال: صدقت

نظر حمزة ليوسف نظرة تعني أنهما لن يخافا شيئا هناك برميلان من البارود في الأخدود ،سيثيران دخان كافيا لزرع آخر داخل السجن ،وبالفعل نزل حمزة للأسفل لقلب الاخدود وأطلق طلقة البداية ،كان الجميع يبحث عن مصدر الصوت لكن السهام المشتعلة التي توالت لم تمهلهم لحظة واحدة في التفكير فيه حتى ،صعد حمزة وساعده يوسف وابتعدا عن الأخدود مسافة كافية وأطلقا سهامها المشتعلة في الاول لم يصيبانه والثاني والثالث ،وأن تقدم أحداهما قد يموت في الإنفجار ،نظر حمزة ليوسف وقال: ما الحل ؟

يوسف: سأصيبه تريث قليلا

أعاد المحاولة ولم ينجح أيضا وإذ بإحدى الحراس يكشف أمرهم ،راه حمزه فقال :يوسف اختبا

يوسف :وأنت ؟

حمزة:هذا أمر نفذّه حالا

تردد ولكنه اختبا اخيرا حمل حمزة سهما وأشعله وتقدم نحو

الأخدود صاح يوسف :حمزة توقف ستموت ..

لكن حمزة لم يعره اهتمام ونزل للأسفل وأطلق السهم من هناك ،وبالفعل حدث الأنفجار ،الأول...

إسلام...

كنت جالسا أترقب الجلبة ،وأدعوا لرفاقي بالتوفيق ،وبالفعل مع صوت انفجار كبير دب في سجن الصخرة ،خرج جميع الحرس لينظروا غير مصدقين ما يحدث ،انتهزت الفرصة وصعدت للداخل حررت صادق وأعطيته سيفا وبدأت بفك قيود الجميع كانوا خمسة عشر شخصا ،نجحت في فك أقفالهم جميعا ،قلت لهم: غادروا حالا هيا.
ساعدت الجميع في الهرب ولم يبقَ أحد ،كنت غاضبًا مما فعله هذا السجن بالكثير من الأبرياء ،حملت عدد من الفحم ووضعته بين ملابس الجنود وأشعلت فيه النار وخرجت مغلقا باب المخبأ بصخرة كبيرة.

مؤمن..

رأيت الانفجار الاول ،فاقتربت من الخيط الذي زرعته لكن أحد الحرس امسكني هناك ،وقال :ماذا تفعل هنا ؟

خشيت أن أدمر الخطة ،وأن أكون سبب الفشل ،فضربت الجندي وأشعلت الحبل ،وسرعان ما ابتعدت وصرخت:

سينفجر المكان ابتعدوا

لكنهم لحقوا بي للإيقاع بي ليس رغبة منهم في الطاعة .امسكوا بي اخيرا لكن في مكان بعيد عن البوابة ودهشوا عندما انفجرت فانتهزت فرصة اندهاشهم وافلّت من أيديهم...

العم فاضل...

الجميع قد وافق على خطة حمزة ،فهم يرفضون الذلّ الذي وقع عليهم ،والظلم الذي بسببه فقدوا الكثير من أحبابهم وأهلهم وأصدقائهم...ونجحت ولله الحمد ،بعد رمينا السهام المشتعلة كان حمزة قد أوصاني بإلقاء أكبر قدر ممكن جمعه من الورق والأعواد الخشبية ،ومن ثم إشعال الفحم وإلقائه..

يوسف...

رأيت حمزة يذهب لإشعال المكان حاولت منعه لكنه كان يعتمد علينا في باقي المهمة وما فعل هذا إلا لأنه يريد منا أن ننجح ،فذهبت وأنا أكفكف دموعي ،وزرعت البارود وفعلت كما قال حمزة ،بأن أضع

البارود في كيس واثقبه وأن أصنع منه خطا على الارض وعند ابتعادي أشعل الخط فيقود إليه فينفجر ،نفذت ذلك ووصلت لباب السجن فرأيت الحرس يلتفون حولي ،قلت سأفشل في تدميره لكني رأيت شخص يحمل السيف يقف خلفي ويقول :تابع..

نظرت له فوجدته الشخص ذاته الذي ساعدني للهروب من السجن ،وها هو يساعدني الان ، ابتسمت وأشعلت الخيط ،ورفعت سيفي وعاونته حتى فتح الله علينا فشققنا صفوفهم شقا وابتعدنا ،وبالفعل انفجر البرميل الأكبر وانفجر السجن بأكمله ،رأيت الحرس يسقطون أرضا منهكين وابتعدت أنا وذاك الشاب الذي قال لي :أين حمزة؟

رأيت مؤمن وإسلام يتجهون نحوي ويقولون بفرح:نجحنا....

وبفرح:مهند أنت حي ؟

ابتسمت لهم وبكيت كما لم أبكِ من قبل وقلت :حمزة في الداخل قد خاطر بنفسه من أجل الانفجار الأول.

جلس مؤمن على الارض وإسلام استدار نحو الحائط وأخذ يبكي أما مهند فنظر لألسنه اللهب التي تخرج من المكان وقال: كيف ذلك ؟لماذا يا حمزة؟

أتت رحمه غاضبة تتبعها أمانه نظرت لوجوهنا الحزينة وقالت: ها قد نجحتم بدوني، أين حمزة؟ سألقنه درسا لن ينساه قط

قال مهند: حمزة هناك ...

وأشار لحيث ألسنة اللهب

رحمة : تمازحني صحيح ؟قل لي أنك تمزح وأنه مختبأ فحسب؟ قلها يا مهند؟

نظر مهند للأرض والدموع تتساقط من عينيه ،فتحركت نحو يوسف

رحمة :يوسف أرجوك قل له أنني لست غاضبة منه دعه يأتي إلى هنا أرجوك؟

حرك يوسف رأسه بحزن وقال ليتني أستطيع!

هناك نار تستشيط غضبا تتقدم نحوهم، ليصدر صوته الأشبه بالفحيح ويقول:

أتعتقدون أنكم نجحتم؟ سأقتلكم جميعا..

حمل مهند سيفه ووقف أمام الجميع قائل:

تراجعوا!

حمل يوسف سيفه ووقف بجور مهند وقال: تقدم أيها الخبيث ستموت الان..

الزعيم: ستدفعون الثمن.

.تقدم نحو مهند بسرعة خاطفة ولكمه بقوة أطاحت به، فهو مصاب من أثر العذاب الذي كان يتلقاه في سجنه، وانقض على يوسف الذي كان يبارز ببسالة حتى أصابه في كتفه.

قال الزعيم ستموتون ..ستموتون ..سـ

وسقط أرضا ،ثم هطل عليه وابل من الرصاص...

أتى صوته الأجش وقال: أتظن أنني أهزم بسهولة!

بكى الجميع، إنها دموع الفرح ،إنه حمزة، إنه حي، اقترب

من الزعيم الذي أصبح مُلقى على الارض وقال: مهما اتدعى المنافق أنه شخص جيد، مصيره جهنم أيها الجرذ المتنكر .

بابتسامة قال ليوسف :تقدم يا يوسف تعال لتحطم جمجمة هذا الخبيث!

نظر يوسف نظرة خاطفة ليمينه فوجد أمانه، تقف وعينيها مشبعة بالدموع، حتى أصبحت تنزل دمعه وتمسح الأخرى وقالت بصوت غاضب وحزين: لقد قتلت أمي، وقتلت أبي ،وقتلت نبض ،وكنت ستقتل صادق وحبيبه، وستذرني وحيدة اصارع العزلة..

وانتهت إلى صخرة كبيرة أمسكتها بكلتا يديها واقتربت من جسده المهزوم وتابعت:إني لأكرهك، قتلت الأبرياء، وما رحمت الضعفاء، وكنت شر يغرس نفسه في حلق الجميع ،فيمنع الخير..

أراد يوسف منعها لكن حمزة أوقفه وأشار له أن يلتزم الصمت.

وأكملت: أنا لست ضعيفة سأقتلك ،سأقتلك ليس رغبة في الانتقام فالمعاملة لا تكون بالمثل، وإنما كي لا ترتكب المزيد من جرائمك البشعة ،فأمثالك ممن يفسدون الحياة لا يستحقونها. فلتذهب إلى الجحيم...

والقت على رأسه بالصخرة فتفتت جمجمته وتبعثرت خلايا دماغه، وانتشر دمه ليعلن أن العيد قد حان، وأن الشر قد زال...

ذهب حمزة لمساعدة مهند وقال: أأنت بخير؟

مهند وهو يربت على كتف حمزة:احسنت لقد كنت بطلا يا حمزة.

ضحك حمزة وقال: بفضل الله...ثم إني لأشكركم جميعا فقد غيرتم في نفسي الكثير وكنتم خير الاصدقاء، لقد تعلمت منكم الشجاعة، والقوة، والحكمة والرحمة والطيبة والصدق والأمانة والكثير، أنتم حقا أشخاص رائعون...وقد حباني الله بالخير عندما يسر لي صحبتكم..

ابتسم مؤمن: كنت بطلا يا حمزة ،وأثبت ذلك بجدارة . ولن يعترض أحد.

ابتسم أهل القرية واجتمعوا جميعا حول حمزة يهتفون بفرح ،هذا يسلم عليه وهذا يحييه وهذا يرفعه، وبعد عناء يوم طويل، اجتمع الأبطال في منزل العم فاضل، الذي ابتدأ الحديث وقال:سيكون مهند الزعيم منذ اليوم فهو بطل شهم.

حمزة: صدقت!

مهند: ألا تظنون أني لا أستحق؟

مؤمن: مهند أني أرى كلامك قد أشعل الشرر في عيني يوسف يبدوا انك ستأكل لكمه أخرى يا صديقي!

يوسف: يبدوا ذلك.

ضحك مهند وقال: حسنا يا رفاق سأفعل ولكن ستكونون حولي وبعون الله سينصرنا الله على الظلم أينما وقع وحل.

ضحك حمزة بفرح ثم تذكر فقال: أين رحمه؟

مؤمن: أصرّت أمانه على أن تذهب معهم إلى بيتهم لكنها رفضت وبشدة وخرجت منذ مدة

اسلام: انتهينا يا حمزة اذهب للنوم الان، لقد نجحت.

حمزه:لا ليس بعد ستنتهي مهمتي بعد تدمير تلك الأسوار التي تغلف القرية..

مهند: فكرة سديدة!

يوسف: لذلك جعلتني ألقي بالبارود أسفل منها؟

حمزة:كنت أخشى أن أفشل فقلت على أبسط الامور سنفجر الأسوار وليهرب من يهرب..

مؤمن: متى ستفجر المكان؟

حمزة: في ظهر الغد سأخرج للسوق مع يوسف وسنذيع الخبر وستذهب يا مهند كونك الزعيم الجديد للناصية التي في الباحة وتهدمها وتخبر الجميع بأمر الانفجار

مهند: وتسميني بالزعيم وأنت تامرني -وضحك- ضحك حمزة وضحك الجميع ..بعد سهره ليست بالطويلة خلد الجميع للنوم فقد كان اليوم متعبا لهم جميعا...

بالنسبة لحمزه لم يكن مسرورا، لكنه قد رمى نصف الحِمل عن ظهره وبقي النصف ،لماذا ذهبت رحمه؟ يبدوا أنها حزين'! هل لا زالت غاضبة منه؟ قرر الذهاب ليجدها هو يعلم أنها في كهف نبض، وبالفعل عندما وصل رأها هناك تحتضن قميصا له وتبكي وتقول :

ليتك هنا يا نبض لقد انتهي كل شيء ،ليتك هنا..

تنحنح حمزة ليعلمَ رحمه أنه أتى وقال:

أيتها السيدة الجميلة أتسمحين لي بالدخول؟!

رحمه:لماذا تتجسس علي أيها الشاب؟ أساءت أخلاقك بعد أن انقذت الأخلاق؟!

ضحك حمزة وقال: أتيت لأطمئن عليكِ فحسب، أهذا جزائي؟ سكتت ولم تجبه..

حمزه:لم تخبريني ماذا كتب لك نبض؟

نظرتْ له نظرة كئيبة ثم أعادت النظر للأرض وقالت: لو كان هنا لكان سعيدا الان .

حمزه:إذا عليكِ أن تبتسمِ!

رحمه بغضب مصطنع :اسمع أيها السيد لقد تذكرت الان بأي حق تضع لي منوم في الطعام.؟

حمزة بضحك:أوصاني نبض بهذا

رحمه:حقا؟!

حمزة:أنتِ متهورة ولن تستجيبِ لي إن أخبرتك أن تظلي بعيدة عن الخطر لذلك فعلت ما فعلت تنفيذا لوصيته..

-لحظة صمت –

أتعلمين! ماكنت سأجعلك تأتين معي حتى لو وافق نبض ،كان المكان خطيرا عليكِ..

رحمه:سترحل؟

حمزه:لا استطيع البقاء هنا يا رحمه، علي العودة هناك شخص في انتظاري..

رحمه:أتقصد أباك؟

حمزة:نعم.. سنقوم بتفجير السور في الغد، عودي للمنزل الان لتنالي قسطا من الراحة..

رحمه: هل لي بسؤال؟

حمزه: تفضلي ؟

رحمه : لماذا اتيت إلى هنا؟

حمزه: للبحث عنك ،من الخطر أن تمضي وحيدة لايزال هناك اتباع لذاك الوغد وأخشى أن يعثر أحدهم عليك.

نهضت وقالت: دعنا نعود....

حمزه:لنعد هيا

لم ينبس أحدهما بحرف واحد، كان الصمت مطبقا عليهما ،رحمه تصارع ألم الفاجعة، وألم الذكريات، ولا تدري ماذا سيحدث لاحقا؟ ! يؤلمها قلبها عندما تعلم أن حمزأ سيغادر، فقد وجدت فيه

نبض الذي فقدته ،والان ستفقد حمزة ايضا...

تنهدت، فلاحظ حمزة ذلك، فقال: رحمه!

أجابت: ها..

قال: سيكون كل شيء على ما يُرام، من المحتمل أني لن أجد شبيهي، ولن اساعده، سأظل عالقا هنا. .

رحمه بصوت منخفض: أتمنى أن لا تجده

ضحك حمزة فقد استطاع سماعها وقال: سيكون الله معنا دوما، انظري للنجوم، ما إن تختفي إحداها تظهر نجمة منيرة مكانها، لا نقص يدوم هنا، كل شيء يترمم، وعلينا التكيف، المهم أن لا ننظر لجانبنا الناقص دوما، فنظري لاكتفائك يا رحمه لتستمتعي...

ابتسمت وقالت: سأحاول جاهدة فعل ذلك

وصلا أخيرا صعد حمزة لغرفته وغطّ في نوم عميق، بعد أكوام المشقة هذه ،والضغط البدني والنفسي الذي تعرض له ،كان نومه بمثوبة

غنيمة قد حصل عليها، فكل الكوابيس كانت تطارده في لياليه الماضية..

"الأمل هو خيار قابل للتجديد: فإذا نفد منك في نهاية اليوم ،

يمكنكَ أن تبدأ الصباح بأمل جديد" باربارا كينج سولفر. لقد أشرقت الشمس ، وسَطَت أشعتها على الظلام، فألقته خلفها، وظهرت هي، نهض حمزة على صوت قرع باب غرفته ليقول: تفضل!

يوسف: انهض أيها الكسول إنها الظهيرة..

حمزة:حقا؟!

يوسف: بالطبع هيا لنذهب..قم لأداء ما فاتك من صلوات ثم نذهب...

ابتسم حمزة ونهض ،صلى ،ولحق بيوسف فوجد الجميع في الاسفل حتى أن صادق وحبيبه قد جاءا لإلقاء التحية ،ابتسم لهم وقال:صباح الخير

يوسف: قل مساء الخير سيكون أفضل هكذا..

ضحك حمزة: علي الخروج الان وإلا تهشم رأسي على يد يوسف.

حبيبه: لكنك لم تتناول شيئا...

يوسف :ليس لديه متسع من الوقت لفعل ذلك ،سنذهب الان وأنا سأتكفل بمهمة إطعامه..

اقتربت رحمه من حمزة وقدمت له حقيبة فقال :ما هذه ؟

رحمه:أبقها معك، وإياك أن تفتحها...

حمزه: لما تعطيني إياها ما دمت لا استطيع فتحها...؟!

رحمه: عندما تعود سأخبرك بما فيها لكنك مشغول الان.

حمزه: حاضر..اعتني بنفسك، وأنتم ايضا يا رفاق وأياكم أن تنسوا ما اتفقنا عليه...

مهند: سأفعل أيها الزعيم.

ضحكوا جميعا وغادر يوسف مع حمزة ،كان حمزة يتحدث عن نفسه فقال: لم يكن لدي أصدقاء بعددكم يوما، كنت أفضل أن أظل وحيدا واكتفيت بصديق واحد منذ طفولتي ، والسبب ماكنت أريد أن أتحمل مسؤولية شيء في هذه الحياة، كنت أعلم أن الصداقة مسؤولية، فسيكون لديك اصدقاء لتطمئن عليهم ،وتزورهم إن مرضوا ،وتساعدهم إن احتاجوا لذلك، كنت أتهرب من منزلي، أو أظل وحيدا في غرفتي، حتى أهرب من كلام أبي الذي يعيد نفسه، لكن الظروف قد

غيرتني كل شيء تغير ،فتحميلكم لي المسؤولية قد غير في نفسي الكثير..

ابتسم يوسف وقال:

ماكنا سنحمّلك مالم ترغب به، لكن الرغبة النابعة من داخلك، وقوة إرادتك وإيمانك، من اجتلبت النصر، فدعك من هذا أنا لاي همني كيف كنت ،ولا يهمك أيضا، فلا تفكر بهذه المأساويه ،أتعلم! أنا أيضا كنت قاسيا مع أبي، لاشك وأنه أخبرك بما فعلت؟

حمزة:أنه يحبك في نهايه المطاف.

يوسف: أتمنى أن يسامحني!

حمزة: سيفعل صدقني.

يوسف بابتسامه :أخبرني كيف سنذيع خبر التفجير؟

ابتسم حمزة وقال: أيها التاجر من أكثر التجار هنا ثرثرة؟

ضحك يوسف وقال: اذا اتبعني أعلم أين يكون جيدا..

وصل يوسف وحمزة لتاجر معروف يحب الثرثرة بالأخبار الصحيحة والخاطئة، اخبراه بأمر التفجير، وبالفعل ما إن وصلا لأخر السوق حتى

سمعوا رجل ينادي على صديقه قائلا:اسمعت سَتُفجر الأسوار الكئيبة؟!

يوسف: في قلبي غصّه غريبة أجهل مصدرها.

حمزه:ما بك؟

يوسف: لا أعلم، أنا قلق!

حمزة: اطمئن ها قد وصلنا

طرق حمزة الباب، لم يأت رد، كرر الطرق لأرد أيضا، في الثالثة طرقه وهو يطمئن يوسف، وإذ بالباب يفتح، وتطل امراه عجوز حفر الشيب رأسها، نظر لها يوسف بشوق بعلم حمزة أنها قريبته، دخلا في عناق شديد، والامر المدهش أن الجدة كانت تبكي بمرارة، لم يكترث يوسف لدموع وقال إنها دموع الفرح ثم قال لحمزه:أعرفك يا صديقي أنها جدتي..جدتي هذا حمزة الشاب الذي انقذ المدينة من سطوت ذاك الشرير.

ابتسمت الجدة وقالت: لقد أخبرني عنك يا حمزة كثيرا، إن ولدي يحبك وبشدة..

حمزه:هذا فخر لي يا جدتي ..أتسمحين لي بالدخول؟

الجدة: أجل تفضلا أدخلا...

يوسف: أين أبي؟

الجدة بحزن قد بدى رغم محاولاتها الجاهدة في إخفائه:

أجلس يا بني.

نهض يوسف وقال: لن أجلس أين أبي؟ ماذا حدث له؟

الجدة: لقد أصابه المرض يا بني ،ولم يستطع مقاومته فسلم روحه ،رحمه الله..

انهار يوسف على الارض وعيناه مغرقتا بالدموع وقال:كيف حدث هذا ومتى؟؟

مسح حمزة دموعه وقام ليساند صديقه فانحنى بجواره

قالت الجدة :منذ شهر تقريبا..

يوسف: شهر !توفي أبي منذ شهر وأنا لم أكن أعلم؟! لا

أصدق أكاد أجن يا حمزة، أنا لا أصدق، أضربني لعلي أصحوا لا أريد الاستمرار في هذا الكابوس، لا أريد.

حمزه:استعن بالله يا يوسف قل إنا لله وأنا إليه راجعون ،واصبر فإن لك بالصبر أجر، وسيساندك الله لتتغلب على ما أصابك من حزن ..اصبر يا يوسف فكلنا على هذا الطريق..

يوسف :لكني كنت أريد أن أعتذر، كنت في شوق لتقبيل يده ورأسه ،وكأن هناك من شق صدري وانتزع فؤادي مني..

كم وددت لو أنه عاد , فهناك الكثير من الكلام له والمئات من رسائل الاعتذار لأمنحه اياها , كم تمنيت عودته لأتاسف وبشدة على ضياع كل دقيقة كان يريد مني أن أبقى فيها معه.

تمنيت أن يرى دموعي وهي تنساب كلما لاح طيفه في الذاكرة ,ليعلمَ مقدار حبي ، كم أشتهي أن أقول أبي مجددا.....

حقا ! كنت مغفلا ، والان أتمنى أن يعود لتوبيخي , ليبتسم فأرى ابتسامته واتمعن فيها , فارحل إلى نطاق السعادة , كم اتمنى لو عاد الزمان أدراجه للوراء ,لألقي بجسدي المتهالك في أحضانه وأجهش البكاء ، أنا حقا افتقده ، لم أعتقد أن هذا اليوم سياتي..

كنت دوما أقول أني سأعتذر غدًا يا أبي، أين الغد؟ ألم تطلع شمسه غلى الان !؟ أين أبي ؟

حمز: استعن بالله يا يوسف، ما رأيك أن تذهب لتتوضأ فتصلي ركعتين، واسال الله له الرحمة ولك المغفرة.

حرك راسه بالموافقة فنهض حمزة معه، ساعده على الوضوء وتركه يصلي في غرفة والده ،جلس حمزة بحزن على كرسي قريب،

فقالت الجدة: كان يتمنى أن يرى يوسف.

حمزة: وأين دفن يا جدتي؟

الجدة :لا أعلم يا بني، قد استفحل به المرض وبقي في المستشفى وبعد مدة وصل مبعوث من المشفى ينقل إلينا الخبر ،ولعجزي لم أستطع الذهاب إلى هناك..

حمزة: هل لك أن تخبريني ما اسم المستشفى؟ الجدة

:أنه مستشفى الألم...

حمزة:سأعود يا جدتي ..أرجوك اعتني بيوسف وأخبريه أني قادم بعد قليل..

الجدة:إلى أين تذهب يا بني؟

حمزة:لن أتأخر بإذن الله..

رحمه...

كنت أتجول برفقة أمانه وحبيبه ،فرأيت حمزة يدخل للمشفى ، لحقنا به، فقد أقلقنا الأمر ،وجدته يسأل الطبيب عن أمر ما فبقينا هناك ننظر إليه من بعيد.رأيت الطبيب يخاطبه وكأنه يخاطب أرذل القوم، وبصدق لقد استشطت غضبا فذهب لمناداة مهند من فوري الذي كان قريب جدا من المكان...

حمزه:أيها الطبيب العم الذي كان يبيع الزهور كان قد استفحل به المرض وأتى إليكم ،هل لي أن أعلم أين هو؟

الطبيب: قلت لك لا أعلم، لا أعلم اذهب الان

حمزة:أخبرني أرجوك...

الطبيب:قلت لك اذهب ألا تفهم؟ اذا كنت لا تفهم سأفهمك بهذه - ورفع سكين الجراحة-

مهند: وإن كنت لا تعلم فهو مستشاري الاول.

الطبيب: الزعيم!

مهند: ما به يا حمزه، إن كان قد ضايقك فاخبرني ،فلم أهدم الناصية بعد.

حمزه:لسنا مثلهم يا مهند، الان دعه يخبرني عن بائع زهور

كان من رواد المشفى هذا قبل شهر تقريبا..

مهند: من يكون؟

حمزه قص عليه القصة بالمختصر فقال مهند:

أتعلم من يكون بائع الزهور هذا؟

الطبيب بخوف: نعم أنه.. أنه ..لقد كان هنا قبل شهر ويسمى ورد..

حمزه:أين ذهب؟

الطبيب: لا أعلم ..لقد أمرني الزعيم السابق أن أخفي أخبار المرضى الذين يتحسنون فمن يخضع للألم مرة فهو ضعيف لا مكان له هنا، لذلك نبلغ أهلهم بوفاتهم ونضعهم في مهجع أسفل هذا المكان.

لم يمهله حمزة فرصة ليتكلم وركض نحو باب قد قاده للبهو، وتبعه مهند، كان ينظر لعيون الموجودين حتى وقعت عينه عليه: عم ورد؟!

ورد: حمزة!

ضحك حمزة وأخبر العم أن له مفاجأة تنتظره، أخذ بيده، وقال لمهند قبل خروجه: تصرف أيها الزعيم لا تترك هذا المكان هكذا..

مهند:

سأفعل ...اسمعوني جيدا سيصبح اسم هذا المكان الأمل عوضًا عن الألم، وستلغى كل القرارات الصادرة بأمر حجز المرضى فنحن بشر، ولابد أن يصيبنا منه شيء، ولكل شخص منا حق له في أن يأخذ العلاج الازم ، وأنت أيها الطبيب وسائر الاطباء، إنكم تقومون بعمل عظيم، فأخلصوا النية لله وقوموا بعملكم على أتم وجه، وأنا لن أتوانى عن محاسبة المقصرين ومكافأة المجتهدين، والله رقيب عليكم...

ابتسم جميع من في المستشفى، وعلت صيحات الفرح، ونطقت الافواه بيحيا العدل...

أردف مهند: المفاسد منتشرة، وأنا لن أستطيع الوقوف وحدي في طريقها، فساندوني وأنا لن أبخل عليكم فيما أستطيعه..

العم ورد: انتظر يا حمزة دعني التقط أنفاسي ..

حمزه: لا وقت يا عمي سنصل بعد قليل ورد:

أهذا منزلي يا حمزه؟

حمزه:نعم

ودخل الباب وصاح :يوسف ..يا يوسف

دخل فوجده يبكي بمرارة على سرير والده قد نُفخت عينيه من شدة بكائه فقال له: أنهض ..أنت رجل.

يوسف: ومن قال لك أن الرجال لا تبكي؟ أن لنا قلبا كسائر المخلوقات..

حمزة :لم أقصد هذا!

نظر لصدمه يوسف، التي بدت على ملامحه فعلم أن العم ورد قد دخل المكان، وبالفعل كان يقف على الباب، والدموع تصطف في صمت ،استطاع تجميع حروفه أخيرا وقال بصوت متقطع: يوسف! ؟

عانق يوسف والده وهطلت غمامات الفرح من عينيهما، بعد طول فراق، وبعد خوفه الكبير عندما أدرك أنه سيفقد والده، انتشرت أجواء الفرح وغمرت المنزل الذي هجر منذ وقت، وابتسم حمزة عندما تذكر أنه سيذهب ليلاقي أباه بعد حين، وسيفرح فرح كهذا، غادر المنزل ،وشعور بأنه أصبح خفيفا سيطير في الهواء لا ينفك عنه، تبعه يوسف ،وقال له: حمزة انتظر

حمزة : ألن تبقى هناك ؟

يوسف: سنفجّر الأسوار معا ثم أعود إلى هنا.

حمزه: إذا فلنفجّرها بسرعة...

ذهبا لكهف نبض وقف حمزة هناك، كان يتمنى أن يرى رحمه وأصدقائه هنا، لكنه لم يجدهم، لا يعلم ما يكمن وراء هذه الأمنية، دلفا لشقوق حيث قاما بصب البارود وتثبيته، حمل حمزه الشعلة التي أشعلها يوسف، وقال: فلننهي الأمر، ها قد انتهت مهمتي..

وألقى بها، فاشتعل المكان ودوى صوت الإنفجار الأكبر الذي شهدته هذه القرية..

وقف حمزة ويوسف بجوار بعضهما على جبل نبض، ونظرا للأنقاض والحجارة المتطاير..

بعد ساعة واحدة كانت حزم الدخان تسابق بعضها في الصعود لطبقات الغلاف الجوي، لقد انتهت المأساة التي كانت تقام خلف هذه الأسوار، وها هو حمزة يسقط بين يدي يوسف، فيسأله يوسف بقلق ما بك يا حمزة؟

حمزه :لا أدري، شعور غريب، لم أشعر به من قبل، يبدوا أني سأغادر المكان الان، أخبر الجميع أني أحبهم...

ومع نهاية كلماته، تلاشى من بين يدي يوسف، أخيرا، حان دوره في أن يتلاشى، ويختفي كما اختفى الجميع من حوله ..

لقد انتهت مهمته هنا وكان يوسف هو الشخص الذي يحتاج للمساعدة، مشكلتهما متشابهة ،بالفعل، كيف لم يلحظ ذلك؟!

انتهت ،جولته في هذا المكان، لقد أحبه ،وأحب من فيه وقد أصبح له أصدقاء أوفياء، لا ينتزعون من ذاكرته أبدا ،لقد غيروا فيه الكثير، ودفعوا في نفسه السرور، لقد أصبح رجل ،عندما احتدت الظروف واضطر أن يتحمل المسؤولية ،قد علقتْ به الآمال وقد نجح في

استعاده أخلاق نفسه ،ومعرفة الحقيقة الكامنة، واكتساب الكثير من العبر...

وأدرك أن سر النجاح هو الثبات على الهدف، وأن الظروف لا تستطيع أن تحكم أحدا يملك إرادة كافية في تحقيق النجاح ،وإن النجاح والسعادة تكمن فيه هو، في ذاته، في قلبه، في تصرفه...

يشعر وكأنه طائر يحلق في السماء وما هي إلا لحظات ،وفتح عينيه لقد كان في المستشفى، نظر ليده فرأى الإبرة تلك وكأنها لم تُزل عن يده يوما ، ابتسم ،استطاع أن يميز ملامحه المتعبة من السهر، وهو يجلس بجواره على كرسي، يمسك بيده بين كلتا يديه، نهض حمزه وقال: أبي؟ الأب بفرح قال وهو يهم باحتضانه: لقد قلقت عليك..أين كنت؟

بكى حمزه، ما أثار دهشة الأب فقال: ما بك يا بني؟ حمزة: إني أسف يا أبي ،أنا أحبك، أحبك، فلا تحزن مما بدر مني، أنا لن أكرر ذلك، وسيتغير كل شيء..

لم يصدق الأب ما يحدث الان، فبعد اختفاء ابنه فجأة ،ورؤيته له بعد غياب طويل ملقى أمام عتبات المنزل غائبا عن الوعي، وحمله إلى هنا بسرعة، والان حمزة الذي يقف أمامه ليس بحمزة الذي يعرفه، ولا يدري ما الذي تغير فيه؟

لكن أيا يكن هو بخير ، وهو أفضل من ذي قبل....

قال والده الذي لم يستطع كبح دموعه :إنها لمعجزة!

حمزة: أبي... -وبابتسامة -لا تحدثني عن المعجزات سأخبرك بما حدث لي،لكن لا تتهمني بالجنون اتفقنا؟!

ابتسم الأب وجلس بعد أن مسح دموعه ودموع ابنه بكفيه وقال: اتفقنا..

قصّ حمزة على والده ما حدث ودخل الطبيب ليث والممرضة رهف التي أشرفت على رعاية حمزة ،فقال ليث: حمدا لله على سلامتك..

ابتسم حمزه:أيها الطبيب أنا أعتذر منك أيضا لقد كنت فظّا معك...

ابتسم ليث :لا عليك كنت أعلم أنك متعب، لكن لماذا ابتعدت عن أبيك وأيضا اختفيت من على سريرك ؟!

ضحك الأب ،لأنه يعلم ما حدث لحمزة ،ونظر حمزة لطبيب وقال: يصعب شرح بعض الأمور فليست كل الأحداث مفهومه ،أنا نفسي لا استطيع معرفه ما حدث لي ؟وكيف حدث هذا؟

ضحك الطبيب وقال :أتهلوس يا عزيزي ؟!

حمزة بعد أن نظر لأباه:أعتقد أن ما حدث يفوق الهلوسة بكثير!...

قص حمزة ما حدث له ،وأثار اندهاش معالم الطبيب إلا أنه ابتسم أخيرا وقال :المهم أنك عدت؟!

حمزة: ستقول أني مجنون ؟!

ليث :لن أقول هذا لقد زرت ذاك المكان من قبل..

حمزة بدهشة: حقا ؟!

ليث:نعم ..وكنت وقتئذ في الجامعة أدرس الطب ولم يتبقَ لدي سوى السنة الأخيرة ،سنة التخصص ،حرت فيما سأتخصص ،وحدثت تلك الحادثة، فقررت أن أتخصص في علم النفس، لكي أعلم ما حدث لي وكيف حدث ؟ حمزة بفضول: وماذا اكتشفت؟

لقد علمت أن هناك بعض الحقائق ليس عليها أن تقال ،وهناك أمور عليها أن تظل غامضة ،وأن هناك أسرار ليس علينا اكتشافها ،وأسرار ليس علينا اقتحامها..

ابتسم حمزة : أهذا ما تعلمته من تلك الرحلة ؟!

ليث: نعم!.. استمع يا صديقي لقد ذهبت إلى هناك وكنت في مستشفى الألم ،هكذا قال لي نبض صديقي العزيز ،أنه سأجد شبيهي هناك..

حمزة: حضرت الطبيب لقد أصبح اسم المستشفى الأمل.

ابتسم ليث وقال :كيف حال نبض ؟

حمزه بحزن : لقد قتل على يد ذاك المنافق...

ليث :لكني أراه حيا ؟!

حمزة: كيف هذا ؟

ليث :وكأنك نبض يا حمزة!

ضحك حمزة بعد أن تذكر كلمات رحمة التي كانت تقول وجدت فيك نبض ..رحمة ! أين هي ؟لقد بقيت وحيدة.

التفت إلى ابيه فجاءه وقال:أبي أرأيت معي حقيبة عندما وجدتني ؟

الأب: إنها هنا لا تقلق..

حمزة:أعطني إياها من فضلك؟

مرر الأب الحقيبة بين يدي حمزة، كيف استطاعت هذه الحقيبة أن تأتي معه؟

فتحها فوجد فيها ورقة

حمزة..

أنا أسفه كنت أعلم أن يوسف هو من عليك مساعدته لكني لم أخبرك بهذا، كنت خائفة من ذهابك، ولكن شاء الله أن تلتقي به، وتنجز

مهمتك، رأيت فيك نبض يا حمزة، فكن بخير، وكن حمزة القوي الشجاع الذي عهدته، لم أسامحك على وضع المنوم لي بعد...

-ضحك حمزة هنا-

أيها البطل وضعت لك تذكار هنا أتمنى أن يعجبك..رحمة" نظر حمزة إلى والده وفي عينيه شيء من الدموع وقال:

كانت فتاة طيبة، أنظر يا أبي لقد تركت لي قميص نبض وكتاب له وسوارها..

ليث: سنصبح أصدقاء يا حمزة أنت شاب شجاع.

أندهش حمزة من كلمات ليث وقال: وكأنك ..وكأنك مهند؟!

ابتسم ليث وقال: ألم يخبروك أنك ستجدهم لكن في أشخاص مختلفين ؟

حمزة: مهند ...!وهب لاحتضانه.

ضحك ليث وقال:اسمي ليث يا نبض..

ضحك حمزة وقال: حسنا لا بأس سأناديك ليث..

ليث :بل بالزعيم..

ضحك حمزة..

مرت الأيام وعاد حمزة لجامعته، ومنزله وأصبح البيت ذو بريق أخاذ، عاد الحب فيه للحياة ،وفي أيام الدوام وهو جالس في إحدى مقاعد كلية الأداب جلس بجواره شخص وضع يده

على كتفه وقال:ما الذي تفعله هنا؟

استدار حمزة وقال :يوسف؟

نظر له محمد: من يوسف يا حمزة؟

ضحك حمزة واحتضنه، لقد عثر على اثنين من أعز أصدقائه يوسف ومهند يتمثلون في أشخاص يحبهم، بات يحبهم حبا مضاعفا..

لم يكذبه محمد، ولكنه لم يقل إن كان قد زار المكان، فعلم حمزة أنه لا يريد الحديث في الأمر، فلم يسأله ،حتى قال:عليك مساعدتي!

نظر له محمد وقال :بماذا؟

حمزة:علي العثور على رحمة يا صديقي..

ضحك محمد :سأفعل..

ابتسم حمزة، تابع دراسته في الجامعة لقد أصبح شابا قويا ذكيا حكيما، ولديه الكثير من الأصدقاء، كان يجد فيهم أصدقائه من الأخلاق..

لقد أصبح حمزة محاضرا يبعث الإيجابية في النفوس، كما أنه عاد ليدرس علم النفس، العلم الذي يكون فيه الطبيب أقرب شيء

للمريض، العلم الذي يدرس تغيرات الإنسان النفسية، لم يفعل هذا لتقليد ليث لكنه يريد أن يساعد الناس بهذا، ثم ما عيب التقليد إن كان فيما هو خير؟ يا ليت الجميع يقلدون الخير في كل منا، لو أنهم فعلوا لأصبح العالم أفضل!

وقف حمزة أمام طلابه في الجامعة كانت علامات الاستياء تحتل أركان وجوههم لأن امتحانهم كان صعبا فقال لهم :اسمعوا يا أصدقائي، في الحياة دروس جميلة، تلحق بنا الخسارة، لكنها تعلمنا شيئا عظيما، ومن كل درس تكتسب شيئا ،وفي كل يوم تصبح على درجة إدراك اكبر من ذي قبل، فلا داعي للاستياء سيكون الامتحان سهلا المرة المقبلة، ليس لأني سأقوم بتسهيل الأسئلة، ولكنكم ستكونون قادرين على الإجابة عنها، فابتسموا هيا.. ضحك معظم الطلاب وقال احدهم:لماذا تفعل هذا؟ ابتسم حمزه وقال: في يوم كنت في أمسّ الحاجة إلى المساعدة فقدم لي دكتور في الجامعة كان هنا نصيحة ،لم أفهم ما ترمي إليه في بادئ الأمر، ولكن أدركتها بعد مدة وجيزة من الوقت ، ولا تعلمون كم كان لكلماته وقع داخلي، وإني لأفعل معكم كما حدث معي...

خرج من المحاضرة يمضي بين موكب من الطلاب المحبين الذين يريدون المزيد من الوقت مع دكتورهم ومعلمهم...

رأه محمد فابتسم وقال: لقد أصبحت مشهورا.

ضحك حمزة :أنت تبالغ ..دعنا نذهب الان!

محمد: هيا لنذهب فليث في انتظارنا ..
دخل حمزة ومن بعده محمد وجلسوا في منزل ليث يبتسمون ويتحدثون حديثا مزج بين كلماتهم السابقة وأحداث ماضية ،وأحداث مستجدة..

حمزة: كيف حال أمانه؟

ضحك ليث وقال: من أمانه؟

حمزة: أوه نسيت ..المعذرة رهف؟

ليث: لقد تقدمت لخطبتها، وأني في انتظار ردها إلى الان.
محمد: ألم يأتي الرد بعد، أعتقد أن هذا الحدث قد أصبح قديما؟!
نظر ليث للأرض باستياء: أتعتقدان أنهم سيرفضون؟

حمزة: لا أعتقد ذلك إياك أن تفقد الأمل!

أستأذنكم الان علي الذهاب وإلا قلق أبي علي تقدم حمزة من بيتهم هو يعلم موقعه جيدا، فقد رافق ليث عندما أتى إلى هنا، طرق الباب ،فطل شقيقها وقال:

أهلا بك تفضل!

دخل حمزة وما إن جلس حتى قال :لقد افتقدتك يا صادق أتذكرني أنا حمزة ..؟!

نظر الشاب بابتسامة وقال: اسمي هو ضياء يا حمزة.

ثم أردف :تذكرتك..

ضحكا واخذا يتداولا أطراف الحديث فيما بينهما، وأخذ حمزة يحدثه عن بعض المواقف الدقيقة التي حدثت معه ،وضياء يستمع له باذان مصغية...

حمزة وهو يقف أمام عتبة المنزل مغادرا: في يوم كان مهند يقف معي وأخبرني أنه يحتاج لمن يساعده في حياته ويقاسمه الحمل، ذكر أنه يحتاج لفتاة شجاعة وقوية، وبعد الأحداث التي مرت قرر خطبه امانه فقال لي ذلك، قلت له عندها لن تجد أفضل منها -وضحك- إنه شاب شجاع يستحق كل خير..

تصبح على خير!

غادر حمزة وترك ضياء يقف مبتسما أمام الباب..

ضياء...

فهمت ما يرمي حمزة إليه، بالفعل مهند شاب شجاع لكني كنت خائفا على أختي امانه، فلقد عانت كثيرا قبل هذا ،نظرت للساعة فوجدتها الحادية عشرة، رفعت سماعة الهاتف فبدا لي أنه لم ينم بعد:

قلت: السلام عليكم..

ليث: وعليكم السلام ورحمه الله وبركاته ..هل لي أن أعلم من أنت؟

ضياء:أنا ضياء..

نهض ليث من جلوسه وقال :أهلا ضياء تفضل؟

ضياء:أردت إبلاغك ردي..

ليث: وما هو ردك؟

ضياء:تعال غدا إلى منزلنا يا ليث سنكون في انتظارك .

أشرق وجه ليث وقال: أحقا ما تقول؟!

ضياء: لديك صديق هو غنيمة بحد ذاته فحافظ عليه..

أدرك ليث أن حمزة السبب وانهى مكالمته مع ضياء وانتقل لحمزه ليبشره لكن حمزة لم يجبه...

عاد حمزة لمنزله ،فتح الباب وقال: أبي ها قد عدت ،أين انت؟

دخل غرفة النوم فوجده نائما:

إني اسف تأخرت عليك، ها أنا يا أبي..

الأب بصوت متعب: حمزة؟!

حمزة بقلق:

أأنت بخير يا أبي؟

الأب: أنا مسرور لأنك عدت ..اعتني بنفسك يا بني إني لأشعر بتعب كبير.

حمزه بخوف: سآخذك للمستشفى انهض هيا!

ابتسم الأب وقال : لا داعي له يا والدي، ابقى بجواري فحسب..

أطاع رغبة والده وبقي بجواره، يحارب الدموع ،ويدعوا له بالشفاء، والأب يتلوى ألما أمام ابنه، فُيُحرق فؤاده، أنه لأمر صعب أن ترى من تحب يصارع الألم، ويحارب من أجلك.

.وخاصة إن كان هذا الشخص هو والدك الذي يبتسم لابتسامتك ويتعب لراحتك ويبكي لبكائك ،إن الاب هو النعمة الكبرى التي منحنا إياها الله في حياتنا، لا أقول إن هذا للاب وليس للام، أن الام تتحمل أيضا الكثير وتفعل من أجلنا الكثير، لكن بطبعنا ننظر أن هذا من واجبات أمنا ،وأن أمنا عطاء لا ينفد .

فعندما يدخل الاب لصنع شيء في المطبخ نراه أفضل مما تصنعه الام ..ليس لأفضليته، ولكن لوقعه في النفس فالأم تعتاد على وجودها هناك، والطهو حرفتها، لكن الاب ،يفني وقته في العمل ،ويتحمل متاعبه من أجلنا ،وعندما يعود يبدا باللعب معنا وأثارت السرور في أنفسنا...

نام حمزة في أحضان والده، إنه المكان الآمن الذي كان له منذ طفولته هكذا ولن يتغير، فمهما كبر سيظل طفلا لن يكبر أمام هذا ، سيظل يحتاجه، ويحتاج نصحه، لم يمنعه العمر من النوم هناك، ولم يخشَ الخزي من فعلته، فهو بهذه الحركة يحتوي الامان والرحمة والحب والمودة والرفق والحنان، قد ادرك هذا كله ،أدرك كلام تلك العجوز عندما تحدثت عن بيتهم أنه بيت المودة والحب..

مرت ليله عصيبة ،وبفضل من الله قد تحسنت حالة والده ،وأقيم بعد عدة أيام حفل زفاف ليث ورهف ، وكانت أيام حمزة من بعد ذلك اليوم شبه روتينية يذهب لدوامه يعود لمنزله ليرتاح ويجلس مع والده ثم يذهب للقراءة، فيجلس بين الكتب التي يحب..

حتى حدث ما حدث...

في نهاية المحاضرة وعندما كان جالسًا على إحدى المقاعد يقرأ في الكتاب الذي أهدته إياه رحمه، كان قد كُتب بخط نبض، وصل الى

عبارة تقول: (لن اتوانى عن تقديم المساعدة لأحد، ولن انطفئ مهما حدث، أني امتلك مفتاح سعادتي، إنهم أصدقائي، الذين دفعوني لاستعادة ايماني ،فاصبح نبضي قويا والحمد لله، لقد تغيرت وأنا مسرور بذلك) ابتسم حمزة وكأن نبض قال ما يريد قوله، أغلق الكتاب ونظر للسماء الصافية، مقولة شكسبير التي قال فيها: أصعب معركة في حياتك عندما يدفعك الناس إلى أن تكون شخصا آخر. قد أصبحت قديمة لا صحة لها فها هم قد دفعوه لشيء كان مُكرها عليه بدايةً، لكنه أحبه في النهاية ،الظروف لا تقف عائقا وإنما تصنع التطور في ذاتك، والصعوبة التي تواجهها تصبح حلاوة عندما تدرك أنك تقدم كل شيء وتحصل نتائج تفوق توقعك ،إنك لتستطيع أن تستمتع في الجلبة التي تثيرها الحياة...

حمل الكتاب ونهض فرأى سوار رحمه يتدحرج من جيبه إلى قدم فتاة، انحنت والتقطت السوار ونظرت لحمزة الذي اقترب منها وقال: من فضلك السوار لي..

قالت وهي تقلب السوار بين يديها: كان لدي واحد مثله لكني أهديته لشخص ما.

ابتسم حمزة وقال لها وهو يستدير: إذا هو حلال عليك..

ابتسمت الفتاة وارتدت سوارها أتعلمون من كانت ؟!

إنها رحمة..